

اليهودي اللايهودي

إسحق دويتشر

ترجمة: ماهر الكيالي

اليهودي اللايهودي

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون، ساقية الجنزير، ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً: موكيالي بيروت، ص.ب ١١/٥٤٦٠ بيروت

الطبعة الثالثة

١٩٨٦

اسحق دويتشر

اليهودي اللايهودي

ترجمة
ماهر كيالي

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

تقديم

اسحق دويتشر (١٩٠٧ - ١٩٦٧)

قامت شهرة اسحق دويتشر في البدء كشاعر ينشر قصائده في المجلات الادبية البولندية وهو في السادسة عشر من عمره . فشعره الاولي، والذي لا يزال يذكره جمهور متفرق من القراء ، له اصداء قوية في التأمل الباطني اليهودي ، وموضوع التاريخ والميثولوجيا اليهودية ، وفي صهر الرومانسية البولندية بالفلوكلور الغنائي اليهودي في محاولة لردم الهوة بين الثقافة البولندية واليديشية . وقام دويتشر ايضاً بترجمة الكثير من الاشعار من العبرية واللاتينية والالمانية واليديشية إلى البولندية .

ولقد استمع ، كطالب منتسب ، إلى محاضرات حول الأدب والتاريخ والفلسفة في جامعة ياغلون في كاراكاو . واصبحت الليالي التي يخصصها لقراءة شعره مشهورة في الحياة الفنية والثقافية في المدينة البولندية .

وفي سن الثامنة عشرة ترك كاراكاو متوجهاً الى وارسو ، وترك الشعر وانصرف للنقد الادبي ونحو دراسات أكثر تعمقاً في الفلسفة والاقتصاد والماركسية . وحوالي عام ١٩٢٧ انضم الى الحزب الشيوعي البولندي المحظور وسرعان ما أصبح رئيساً لتحرير المجلات والصحف الشيوعية السرية وشبه-

السرية . وفي عام ١٩٣١ سافر متجولاً في الاتحاد السوفياتي ليتعرف بالظروف الاقتصادية للبلد في ظل خطة السنوات الخمس. ورفض دويتشر المنح التي قدمت اليه لتسلم مناصب أكاديميـــة في جامعتي موسكو ومينسك كاستاذ لتاريخ الاشتراكية والنظرية الماركسية . وفي السنة التالية طرد من الحزب الشيوعي .

كان السبب الرسمي لطرده انه « هول من خطر النازيـة ونشر الرعب في الصفوف الشيوعية » . بعد عودته من الاتحاد السوفياتي سرعان ما أسس مـع ثلاثة أو أربعة من رفاقـــه أول معارضة معادية للستالينية والحزب الشيوعي البولندي . واحتجت مجموعتـــه على خط الحزب الذي لا يعتبر الاشتراكية الديمقراطية والنازية « نقيضين بل توأمين » . وطرد رئيس التحرير من الحزب ، وحرم من العودة اليه عندما ظهرت الصحف الشيوعية السرية تحمل في عناوينها « خطر البربرية على اوروبا » ، ومنذ ذلك اليوم طارده رجلا بوليس سريان : احدهما يعمل لحساب البوليس البولندي والآخر متطوع من احدى خلايا الحزب الستاليني .

في نيسان من عام ١٩٣٩ غـادر اسحق دويتشر وارسو قاصـداً لندن كمراسل لصحيفة بولندية يهودية تعاقدت معه لمدة اربع عشرة سنة ليعمـل كمدقق مصحح . وكان قيام الحرب من حسن حظه اذ انه انقطع عن تحصيـــل معاشه . ورفضت احدى الصحف اليديشية اللندنية تشغيله مما اجبره على بذل اقصى طاقاته لتعلم اللغة الانجليزية .كان يكتب أول مقال له وهو محوط بالمعاجم وكتب قواعد اللغة والنصوص وأرسل المقال الى مجلة الايكونوميست التي نشرته في الاسبوع التالي . ومنذ ذلك الوقت وهو يكتب للمجلة بأنتظام .

وفي عام ١٩٤٠ التحق اسحـــق دويتشر بالجيش البولندي في سكوتلاندا ولكنه قضى معظم حياته هناك في معسكرات التأديب كعنصر «خطر وهدام» كجواب على احتجاجاته المستمرة ضد المعاداة للسامية المتفشية في ذلك الجيش . وفي عام ١٩٤٢ تم الافراج عنه وانضم الى هيئـــة تحرير مجلة الايكونوميست (The Economist) واصبح خبيرها في الشؤون السوفياتية ، ومعلقها

العسكري ورئيس المراسلين الاوروبيين . وانضم ايضاً الى هيئة تحرير الاوبزرفر التي أصبح مراسلها المتجول في اوروبا. وكان يكتب فيها تحت اسم مستعار وهو برغرين (Peregrine) .

في عام ١٩٤٦–٤٧ ترك العمل الصحافي المنتظم واتجه نحو عمل اكثر ديمومة. وقام في عام ١٩٤٩ بنشر كتابة « ستالين » وهو دراسة عن سيرة حياة ستالين السياسية . ووصف هذا الكتاب على انـه « اكثر دراسة مثيرة للجدل لسيرة حياة في عصرنا الحاضر » وظهر في عدة طبعات وبلغات عديـــدة • واحتوت طبعة عام ١٩٦٧ الموسعة على ملحق عن السنوات الأخيرة من حياة ستالين .

ادى نشر كتاب « ستالين » الى الاعتراف بدويتشر كخبير في الشؤون السوفياتية ومؤرخ للثورة الروسية . ووطدت ثلاثيتـــه عن تروتسكي — النبي المسلح ١٩٥٤ ، النبي الاعزل ١٩٥٩، النبي المضطهد ١٩٦٣ — شهرته كشخص متملك لناصية النثر الانجليزي . لقد ارتكزت دراسته عن حياة تروتسكي الى دراسة مستفيضة لارشيفات تروتسكي في جامعة هارفارد . واعتبرت المواد التي تضمنها الجزء الثالث فريدة من نوعها ، ذلك ان دويتشر حصل على اذن خاص من ارملة تروتسكي يخوله حق القراءة في الفصل المغلق من الارشيف والتي طلب تروتسكي ان يبقى مغلقاً حتى نهاية هذا القرن .

كان مخطط دويتشر يقضي بأن يختتم سلسلة ترجماتـه عن حياة الشخصيات بدراسة عن لينين . وكثيراً ما اعرب عن امله بأن ينظر الى مؤلفاته الشخصية على انها كلها « مقال فريد يحلل ثورة عصرنا الحاضر تحليلاً ماركسياً وايضاً كثلاثيه ذات وحدة فنية » .

كان دويتشر يحاضر في جامعة كمبردج عام ١٩٦٦ — ٦٧ في جمهور كبير وكان يكافأ بأهتمامهم الشديد واستجابتهم الدافئة .وصادفه نفس الاهتمام عندما مكث ستة اسابيع في كلية هاربر بجامعة ولاية نيويورك ، وكذلك عندمـــا حاضر في جامعات برنستون ، هارفارد وكولمبيـا في ربيع عام ١٩٦٧ . ولقد

ظهرت مجموعة المحاضرات التي القاها في جامعة كمبردج تحت عنوان « الثورة غير المنتهية » (The Unfinished Revolution) في أربعة عشر بلداً في آن معاً ، ولكن على الرغم من صدور كتبه في طبعات عديدة وترجمتها الى لغات عديدة فانها لم تنشر ، حتى الآن ، في أي بلد من بلدان الكتلة السوفياتية . ومع ذلك فهناك دليل على أنه يحظى بعدد وافر من القراء الجريئين والمخلصين .

كان دويتشر خطيباً ساحراً ومتحدثاً يمتلك قوة اقناع عظيمة وغالباً ما خاطب جمهوراً غفيراً على جانبي الاطلنطي . وفي عام ١٩٦٥ شارك في ندوة جماهيرية عن فيتنام حيث تجمهر ١٥ الف طالب للاستماع الى محاكمته وادانته للحرب الباردة .

لقد كان اسحق دويتشر يتمتع بحيوية مذهلة ، فعلى الرغم من انشغاله بمفرده بعمل تأليفي ضخم فقد بقي يلاحق مسار الاحداث باهتمام وشغف . وبقيت تحليلاته للاحداث السياسية الدولية تقرأ في الصحف الرئيسية لمدة ١٤ عاماً في اوروبا والولايات المتحدة وكندا واليابان والهند وامريكا اللاتينية .

وبقي يعمل حتى آخر يوم من حياته . وتوفي في روما في ١٩ آب ١٩٦٧ .

تمارا دويتشر

اليهودي اللايهودي

ثمة مثل تلمودي قـــديم يقول « يبقى اليهودي يهوديـاً حتى لو ارتكب معصية » . تفكيري الخاص، بالطبع، يتخطى فكرة « الخطيئة » أو « عدم الخطيئة » ولكن هذا المثل اعاد إلى ذهني ذكرى تعود الى ايام الطفولة ربما لا تكون مرتبطة بموضوعي .

اذكر أنني عندما كنت كطفل اقرأ « المدراش » — التفسير اليهودي للتوراة — مررت بقصة ووصف لمنظر استحوذ على مخيلتي ، إنهـــا قصة الحاخام مايير ، القديس العظيم والحكيم، وقطب المعتقد الموسوي الأصيل ، والذي تلقى دروساً في اللاهوت على يد أحد علماء الدين الهراطقة وهو اليسحا بن ابيوح المدعو آكر — الغريب — . فقد حدث في يوم سبت ان الحاخام مايير كان مع استاذه وسرعان ما اشتبكا كعادتهما في جدال عميق . كان الهرطوقي يركب حماراً والحاخام مايير يمشي بجـــانبه وهو يصغي بانتباه شديد لكلمات الحكمة التي تنطلق من شفتي الهرطوقي حتى انه فاته هو واستاذه انهما قد وصلا الى الحدود الدينية التي لا يسمح لليهود باجتيازها في يوم السبت . والتفت الهرطوقي صوب تلميذه وقال : « ها قد وصلنا الحدود — علينا ان نفترق الان ، وعليك ان لا ترافقني بعد هذا — هيا عد » !! ورجع الحاخام مايير إلى الطائفة اليهودية بينما اجتاز الهرطوقي متعدياً الحي اليهودي .

---

* إستصوبنا ترجمة (Non - Jewish) بالمعنى المقصود هنـــا بكلمة « لا يهودي » عوضاً عن « غير يهودي » . (المترجم) .

كان في هذا المشهد ما يكفي ليحير طفلاً يهودياً متديناً . وتساءلت ، لماذا ياخذ الحاخام مايير وهو المشرق بعقيدته الدينية السليمة دروسه عن هذا الهرطوقي ؟ لماذا يظهر له قدراً كبيراً من التعلق ؟ لماذا يدافع عنه في وجه الحاخامين الاخرين ؟ ويبدو ان قلبي كان مع الهرطوقي. فمن يكون هذا الرجل ؟ كان يبدو انه من اليهودية وبمنأى عنها ايضاً .. كان قد أبدى احتراماً عجيباً لتمسك تلميذة بعقيدته عندما أعاده إلى اليهود في يوم السبت المقدس ولكنه ، هو نفسه ، لم يلق بالاً للشريعة والطقوس الدينية فسار متجاوزاً الحدود . عندما كنت في الثالثة عشرة أو ربما في الرابعة عشرة من عمري بدأت بكتابة مسرحية حول اكر والحاخام مايير وحاولت ان اكتشف المزيد عن شخصية آكر . ما الذي جعله يتجاوز اليهودية؟ هل كان روحانياً ؟ام انه كان من المتشيعين لمدرسة أخرى من مدارس الفلسفة اليونانية أو والرومانية ؟ لم استطع إيجاد الاجوبة ولم اعمل على تجاوز المشهد الاول .

ان الهرطوقي اليهودي الذي يتجاوز يهوديته ينتمي إلى تقليد يهودي . ويمكنك ، إذا رغبت ، ان تنظر إلى آكر كشبيه للثوريين العظام في الفكر الحديث امثال اسبينوزا، هاين ، ماركس، روزا لوكسمبرغ، تروتسكي وفرويد. ويمكن لك ان رغبت ان تضعهم ضمن تقليد يهودي فجميعهم تخطوا حدود اليهودية لأنهم وجدوها ضيقة ومقيدة الى ابعد الحدود وقد اكل عليها الدهر وشرب . لقد تطلع جميعهم الى مثل وانجازات تتخطاها ، فهم يمثلون حصيلة وجوهر كل ما هو عظيم في الفكر الانساني ، حصيلة وجوهر أعمق التغييرات التي حدثت في الفلسفة ، علم الاجتماع ، الاقتصاد ، وعلم السياسة في القرون الثلاثة الاخيرة .

هل هناك شيء مشترك يجمع فيما بينهم ؟ وهل من المحتمل أن يكون تأثيرهم العظيم في الفكر البشري منبثقاً من « عبقريتهم اليهودية » الخاصة ؟ أنا لا أؤمن بعبقرية محصورة بعرق أو بسلالة. ومع ذلك فقد احتفظ هؤلاء بيهوديتهم بصورة

أو بأخرى وامتلكوا في ذواتهم شيئاً من جوهر الحياة الهيودية وفطنتها . كانوا في هذا يشكلون نوعاً من الاستثناء كيهود عاشوا على تخـــوم مدنيات وديانات وحضارات متعددة الاشكال. لقد ولدوا ونشأوا على تخوم عهود مختلفة ونضجت عقولهم حيثما تلاقت أكثر التأثيرات الحضارية تبايناً وغذى بعضها بعضــاً . لقد عاشوا على الهوامش أو في الزوايا المظلمـــة لشعوبهم وكان كل منهم في المجتمع ولكنه خارجــه أيضاً ومن المجتمـــع وليس منه ايضاً . لقد مكنهم هـذا الأمر من الارتفاع بفكرهم فوق هـــذه المجتمعات ، فوق أممهم وفوق عصورهم واجيالهم وان يجولوا في عقولهم آفـــاق عريضة جديدة وبعيداً نحو المستقبل .

واعتقد ان الذي كتب سيرة حياة اسبينوزا ، وهو بروتستانتي انجليزي ، كان قد قال ان اليهودي فقط ، هو الذي يستطيع ان يحـــدث ثورة في فلسفة عصره وهذا ما فعله اسبينوزا وهو يهودي متحلل من جمود الكنائس المسيحية ، الكاثوليكية والبروتستانتية ، ومن الايمان بدينه الذي اعتنقه يوم مولده . أمـــا ديكارت وليبنتز Leibnitz فلم يستطع أي منهما ان يتخلص بنفس المدى ، من تقاليد مدارس القرون الوسطى في حقل الفلسفة .

نشأ اسبينوزا في ظل التأثيرات القائمة في اسبانيا ، هولاندا ، المانيـــا ، انجلترا ، وايطاليا عصر النهضة – فساهمت جميع التيارات الفكرية العاملة في ذلك الوقت في تشكيل عقله . وكانت هولندا موطنه الاصلي على اعتاب ثورة برجوازية . وكان اجداده من المارانيم Maranim ، وهم مزيج من الشعبـــين الاسباني والبرتغالي ومن الذين كانوا يهودا بالسر ، يكنون لليهودية محبة قلبية ولكنهم اضطروا كالعديد من اليهود الاسبانيين وبسبب اكراه محاكم التفتيش الى اعتناق المسيحية . وبعد ان جاءت عائلة اسبينوزا الى هولندا ، أسفر افرادها عن معتقدهم الحقيقي وأعلنوا أنهم من اليهود ، ولكنهم لم يكونوا

بالطبع لا هم ولا احفادهم بغرباء عن الاجواء الثقافية للمسيحية .

وعندما ظهر اسبينوزا كمفكر حر في البدء ثم كخبير في النقـــد الحديث للكتاب المقدس تفهم على الفور التناقض الرئيسي في اليهودية ، وهو التناقض بين الآله التوحيدي والعالمي من جهة وبين الوضع الذي يظهر فيه الله في الديانـــة اليهودية– كآله ملازم لشعب واحد فقط ، أي التناقض بين الآله العالمي « وشعبه المختار » . ونحن نعرف ان ادراك اسبينوزا لهذا التناقض قد أدى الى طرده من الطائفة اليهودية وحرمانه من العودة إليها . وكان عليه ان يحارب الكهنة اليهود الذين كانوا ضحايا محاكم التفتيش ولكنهم اصبحوا فيما بعد مفعمين بروح هـذه المحاكم، ثم كان عليه ان يواجه خصومه رجـــال الدين الكاثوليك والقساوسة البروتستانت . لقد أمضى حياته في النضال من أجـــل تخطي حدود الديانات والحضارات في عصره .

ولقد تعرض عـــدد من عظماء المفكرين اليهود لتناقضات الديانات المختلفة والجذبوا نحو اتجاهات مختلفة بفعل التأثيرات والضغوط المتناقضة ، فاصبح من الصعب عليهم ايجاد توازن روحاني في نفوسهم مما ادى إلى تفككهم . وكان بين هؤلاء يوريل اكوستا (Uriel Acosta) الذي كان سابقاً لاسبينوزا وأكبر منه سناً . لقـــد احتج يوريل مرات عديدة ضد اليهودية ، وكان في كل مرة ، يتنكر لاحتجاجاته . وكثيراً ما حرمه الحاخاميون ولكنه سرعان ما كان يجثو أمامهم على أرض الكنيس في امستردام ، طالباً منهم الصفح عنه . أما اسبينوزا فقد كان على عكسه تماماً يشعر بسعادة فكرية عظيمة عندما كان قادراً على أن يوفق بين التأثيرات المتضاربة ويخلق منها منظاراً أسمى وفلسفة متكاملة يطل من خلالها على العالم الخارجي .

وفي كل جيل من الاجيال تقريباً ، وحيثما كان المثقف اليهودي يخوض نضالاً مع ذاته ومع مشاكل عصره نجد أن شخصاً ما ، مثل يوريل اكوستا ، ينهار من

العبء الملقى عليه ، بينما نجد شخصاً اخر مثل اسبينوزا يجعل من هـذا العبء اجنحة للعظمة . وكانت علاقة هاين بماركس - تلميذ اسبينوزا - فيما بعد كعلاقة اكوستا باسبينوزا .

كان هاين متنقلاً بين المسيحية واليهودية وبين فرنسا والمانيـا وتضاربت في موطنه ، حوض الراين ، تأثيرات الثورة الفرنسية والامبراطورية النابليونيـة مع تأثيرات الامبراطورية الرومانية المقدسة القديمة في المانيا القيصرية . نضج هاين من خلال حلقات الفلسفة الكلاسيكية الالمانية وحلقات افكار الجمهوريين الفرنسيين. وكان يرى في كانت (Kant) شبيهاً بروبسبير وأما فختة (Fichte) فقد كـان في نظرة نابليون في عالم الروح . هكـذا يصفهم في احدى اعمـق المقطوعات (*) التي كتبها واشدها اثارة . وفي سنواته الاخـيرة أصبح على اتصال بالمذاهب الشيوعية والاشتراكيـة في فرنسا والمانيا واعجـب بماركس وقابله بنفس العطف والاعجاب الذي قابل به أكوستا سبينوزا .

ونشأ ماركس بدوره في حوض الراين . وعندما تخلى والداه عن اليهودية لم يناضل مع الارث اليهودي كما فعل هاين . ولكنه بذل كل قوتـه في معارضة التخلف الاجتماعي والروحي في المانيـا في تلك الحقبة . وقضى معظم حياته في المنفى حيث تشكل فكره منبثقاً من الفلسفة الالمـانية والاشتراكية الفرنسية والاقتصاد السياسي الانجليزي . وتلاقت هذه التأثيرات المتنوعة في ذهن ماركس بشكل لم يحدث لأي مفكر في عصره واستطاع ان يسمو عليها ويستوعب خلاصة هذة التيارات الثلاثة ويتجاوز حدودها جميعاً .

واذا ما اقتربنا من عصرنا الحاضر نجد ان كلا من روزا لوكسمبرغ وتروتسكي وفرويد قد تشكلوا ذهنياً بدورهم وسط تيارات تاريخية متضاربة . وتمثل روزا لوكسمبرغ مزيجاً فريداً من الصفات الالمـانية والبولندية والروسية ومن المزاج اليهودي . أما تروتسكي فقد كان تلميذاً في مدرسة لوثريه ثانوية المانية روسية تقع في اوديسا على اطراف امبراطوريـة القياصرة الروم . أما فرويد فقد

* وردت هذه المقطوعات في كتاب :
Zur Geschichte der Religion and Philosophie in Deutschland.

نضج عقله في فيينا في غربة عن اليهودية وفي فـــترة معارضته للنفوذ الاكليركي الكاثوليكي في السياسية في العاصمة النمساوية . لقد كانت الظروف الفعلية التي عاشوا وعملوا فيها تشكل امراً مشتركاً فيما بينهم ، تلك الظروف التي لم تسمح لهم بان يطوعوا انفسهم لافكار كانت محصورة دينياً وقومياً وحفزتهم للنضال من اجل مجتمع عالمي .

لم تعد اخلاق اسبينوزا اخلاقاً يهودية بل اخلاق الانسان بصورة عامة — تماماً كما لم يعد الهه يهودياً ، لقد توحد الهه بالطبيعة فافرز هويته الخاصة والمميزة بصورة رائعة ومع ذلك بقي باخلاقه والهه ، بطريقة ما ، يهودياً لولا انه ذهب بوحدانية الهه واخلاقه إلى نتيجتها المنطقية فبلغ بفكرة الاله الكوني مداهـا الاقصى ، وفي اللحظة التي بلغ فيها المدى الاقصى ، كف هـذا الاله عن كونه يهوديـاً .

اما هاين فقد قضى حياته متعاركاً مع اليهودية وتميز موقفه منها بالتضارب ممتزجاً بالكراهية والمحبة الشديدين معاً . لقـد كان في هذا المقام أقل شأناً من اسبينوزا الذي لم يصبح مسيحياًعلى الرغم من نبذ اليهود له.لم يكن هاينيمتلك قوة اسبينوزا العقلية والشخصية.فعلى الرغم من انه عاش في مجتمع يمر بالعقود الاولى من القرن التاسع عشر إلا ان هذا المجتمع كان أشد تخلفاً من مجتمع الماني فيالقرن السابع عشر . وعلق آماله في البدء على التحرير الوهمي لليهود . وقد عبر موسى موسى مندلسون(Moses Mendelsohn) عنهذا التطلع بقوله: « كن يهودياً في داخل بيتك ورجلاً في الخـــارج ». كان التخوف من هذا التطلع الالماني — اليهودي ليس إلا نوعاً من الليبرالية التافهة للبرجوازية الالمانية غير اليهودية. ذلك ان الليبرالي الالماني كان « رجلاً حراً» في داخل بيته « واكثر الرعايا اخلاصاً في الخارج » . ما كان هاين ليرضى بهذا طويلاً فتخلى عن يهوديته واستسلم للمسيحية ولكنه بقي في داخله غير راض عن تخليه وتحوله . أمـا رفضه للعقيدة اليهودية فانه يشاهد في جميع اعماله . فهو يقول على لسان دون اسحق موجهاً كلامه الى

الحاخام فون باخراش Bachrach : « لا استطيع ان اكون واحداً منكم . وأنا أحب طعامكم بشكل يفوق كثيراً حبي لديانتكم . كلا ، لا استطيع ان اكون واحداً منكم وأظن انني في احسن الاوقات ، في ظل حكم الملك داوود ، كنت على الأرجح سألجأ الى الفرار بعيداً عنكم ، متوجهاً الى المعابد الاشورية والبابلية المفعمة بالحب ومرح الحياة » .

كان ماركس أصغر من هاين بعشرين عاماً ومع ذلك فقد تغلب على المشكلة التي واجهت هاين . وامسك بها بأحكام مرة واحدة فقط وكان هذا في مؤلفه الشهير Zur Judenfrage وكان هذا رفضه غير المتحفظ لليهودية . وقد تعرض بسببها لهجمات عنيفة من قبل المدافعين عن العقيدة اليهودية وعن القومية اليهودية واتهم بأنه « معاد للسامية » . مع ذلك ، فانني اعتقد بان ماركس قد أصاب جوهر القضية عندما قال بان اليهودية عاشت « لا على الرغم من التاريخ بل فيه ومن خلاله » . أي انها مدينة في بقائها للدور المميز الذي قام به اليهود كوسطاء للاقتصاد النقدي في بيئات عاشت في اقتصاد طبيعي ، أي ان اليهودية كانت بالضرورة خلاصة نظرية لعلاقات السوق ولولاء التاجر ، وان اوروبا المسيحية ، في تطورها من الاقطاعية الى الرأسمالية ، أصبحت يهودية بمعنى من المعاني . لقد رأى ماركس المسيح كأنه « اليهودي المنظّر » واليهودي و كأنه « المسيحي العملي » . ومن ثم فقد اعتبر ماركس المسيحي البرجوازي « العملي » « يهودياً » . ولما كانت اليهودية في نظر ماركس انعكاساً دينياً لطريقة البرجوازي في التفكير فقد رأى ان البرجوازية الاوروبية شبيهة باليهودية ولم تكن غايته تحقيق المساواة بين اليهودي وغيره في مجتمع رأسمالي مُهوّد وانما تحرير اليهودي وغير اليهودي على السواء من الطريقة البرجوازية في الحياة ، أو كما يضعها هو بعبارة هيغلية محرضه وموهمة للتناقض « تحرير المجتمع من اليهودية » . لقد كانت فكرته عالمية وهي كفكرة اسبينوزا التي سبقتها بمدة ٢٠٠ سنة ، فكرة الاشتراكية والمجتمع الخالي من الطبقات .

ولم يكد يكون بين اتباع ماركس ومريديه أحد قريباً منه ،روحاً ومزاجاً، بقدرما كان تروتسكي وروزا لوكسمبرغ . وتظهر الصلة فيما بينهم من خلال الديالكتيكية المثيرة للعالم ولصراعاته الطبقية ومن خلال ذلك الانسجام الفريد في الافكار والمشاعر والخيال مما اكسب لغتهم وأسلوبهم وضوحاً خاصاً وكثافة وغنى . لقد ناضل كل من روزا لوكسمبرغ وتروتسكي مع رفاقهما من غير اليهود من أجل حلول شاملة كبديل للحلول الخاصة ومن أجل حلول عالمية كبديل للحلول القومية لمشاكل عصرهم . وعملت روزا لوكسمبرغ على تجاوز التناقض بين الاشتراكية الالمانية الاصلاحية وبين الماركسية الروسية الثورية فارادت ان تطعم الاشتراكية الالمانية بشيء من الحركة الثورية الروسية والبولندية ومثاليتها ، بشيء من الرومانسية الثورية التي يمجدها لينين بقوة ، وحاولت ان تزرع في بعض الاحيانتقاليد وروح الديمقراطية الغربية الاوروبية في الحركات الاشتراكية السرية في شرق اوروبا ولكنها فشلت في غايتها الرئيسية ودفعت حياتها ثمناً لذلك بيد انها لم تكن الوحيدة التي دفعت حياتها فباغتيالها احتفلت المانيا بآخر نصر لعائلة هوهن زولرن Hohenzollern واما المانيا النازية فسجلت انتصارها الاول .

لقد وضع تروتسكي صاحب الثورة الدائمة نصب عينه هدف الهاب ثورات على نطاق عالمي بقصد اعادة قولبة البشرية . وكان يشكل مع لينين أهم قادة الثورة الروسية وهو الذي أوجد الجيش الأحمر ولكنه دخل في صراع مع الدولة التي ساعد على خلقها عندما رفعت هذه الدولة وقادتها شعار الاشتراكية في بلد واحد . فلم يكن يرضى بتحديد الرؤية الاشتراكية ضمن حدود دولة واحدة .

كان هؤلاء الثوريون العظام ذوي تركيب هشّ جداً اذ كانوا بسبب يهوديتهم ، دون جذور . لكنهم كانو يمتلكون اعمق الجذور في التقاليد لثقافية وفي التطلعات النبيلة لعصرهم . وعلاوة على ذلك فحيثما يسود التعصب

الديني أو الاحساس القومي وحيثما تنتصر المفاهيم الضيقة الأفق فانهم يكونون كبش الفداء . لقد حرمهم الحاخاميون من العودة لليهودية، واضطهدهم القساوسة المسيحيون ، وتعرضوا لملاحقة شرطة الحكام المستبدين ولكراهية غير المثقفين من مدعي الديمقراطية واخيراً طردوا من الاحزاب التي انضموا اليها . لقد ابعد معظمهم ، تقريباً ، خارج بلادهم واحرقت كل كتاباتهم . ولم يكن بالامكان ذكر اسم اسبينوزا بعد وفاته ، لمدة تزيد على القرن – وحتى ليبنتز الذي يدين بكثير من افكاره لاسبينوزا لم يجروء على ذكره . وما زال اسم تروتسكي في روسيا خاضعاً للحرمان. وحتى عهد قريب ، كانت اسماء ماركس ، هاين ، فرويد وروزا لوكسمبرج محظورة في المانيا . ولكن انتصارهم كان مطلقاً ،فبعد أكثر من قرن تغلف فيه اسم اسبينوزا بالنسيان نجدهم قد شيدوا له نصباً تذكارياً واعتبروه أعظم نتاج للعقل البشري . وسبق لهردر ان قال : « اتمنى لو أن جوته قرأ بعض الكتب اللاتينية بمعزل عن « اخلاقيات » اسبينوزا» . وكان جوته متعمقاً بالفعل في فكر اسبينوزا ، وقد وصفه هاين بحق بانه « اسبينوزا الذي تخلص من غطاء صيغته الهندسية – الحسابية والماثل امامنا كشاعر غنائي » . وانتصر هاين نفسه على هتلر وجوبلز . وسيبقى الثوريون الاخرون الذين يسلكون هذا النهج و سينتصرون عاجلا أو اجلا على اولئك الذين عملوا بدون كلل لطمس ذكراهم .

وانه لمن البديهي جداً ان يكون فرويد منتمياً لنفس الخط الفكري. فمهما كانت مزايا وعيوب تعاليمه فانه تخطى قصور مدارس علم النفس المبكرة ، فالرجل الذي شخصه في تحليله لم يكن المانياً أو انجليزياً أو روسياً أو يهودياً – انما هو الرجل العالمي الذي يتصارع فيه اللاوعي مع الوعي وهو الذي يشكل جزءاً من الطبيعة ومن المجتمع ، وهو الذي تكون تطلعاته ورغباته الشديدة ، حيرته

وكبته ، قلقه وحالته متطابقة بالضرورة بغض النظر عن دينـــه وعرقه . بالنسبة لهم ، كان النازيون على حق عندما قرنوا اسم فرويد بماركس واحرقوا كتب الاثنين .

على أن ثمة مبادىء فلسفية معينة كانت تجمع بـــين جميع هؤلاء المفكرين الثوريين .فعلى الرغم من اختلاف فلسفاتهم من قرن لاخر ومن جيل لاخر فانهم جميعاً ، من اسبينوزا حتى فرويد ، آمنوا بالحتميات التاريخية وبان هناك قوانين كامنة في الكون هي التي تحكمه . فهم لا ينظرون إلى الحقيقة على انهـا مجموعة احداث مختلطة بغير نظـــام أو ان التاريخ ليس إلا حشداً لنزوات أو اهواء الحكام . ويقول فرويد ليس هناك شيء اتفاقي في احــلامنا أو في حماقاتنا أو حتى في هفوات السنتنا . أما تروتسكي فيقول بان قوانين التطور تنعكس من خلال الاحداث ، وهو قريب من اسبينوزا في قوله هذا .

انهم جميعـــاً يؤمنون بالحتميات لانهم راقبوا مجتمعات عديدة ودرسوا عن كثب ، العديد من « انماط الحيـاة » مما مكنهم استيعاب القوانين الاساسية للحياة . وكانت طريقتهم في التفكير ديالكتيكية بسبب انهـــم عاشوا بين أهم الديانات ورأوا المجتمع وهو في حالة تغير مستمر ، لذلك فهم يرون الحقيقة على انها ديناميكية وليست ساكنة ، أما أولئك الذين ينغلقون في مجتمع واحد أو شعب واحد أو دين واحد فانهم يميلون إلى التخيل بان طريقتهم في الحياة أو في التفكير تكون دوماً صالحة وبصورة مطلقة وان كل ما يناقض مقاييسهم هو « غير طبيعي » ووضيع واثيم بطريقة أو باخرى . ومن جهة اخرى فان الذين يعيشون وسط حضارات متعددة يدركون الحركة العظيمة والتناقض العظيم في الطبيعة والمجتمع بصورة أكثر وضوحاً .

ان جميع هؤلاء المفكرين متفقون على الأهمية النسبية للمعايير الاخلاقية فلا يوجد فيهم من يؤمن بالخير المطلق أو بالشر المطلق . فلقد ادركوا التزام الجماعات

بالمعايير والقيم الاخلاقية المختلفة ، فما كان يعتبر خيراً بالنسبة لمحاكم التفتيش الكاثوليكية كان شراً بالنسبة لليهود الذين كان من بينهم جد اسبينوزا وجدته ، وما كان يعتبر خيراً للحاخامين واليهود الاسبقين كان شراً لاسبينوزا ذاته ، ولقد خبر ماركس وهاين في طفولتها التضارب الكبير بين اخلاقية الثورة الفرنسية واخلاقية المانيا الاقطاعية .

وعلاوة على ذلك فقد كانت تجمع بين معظم هؤلاء المفكرين فكرة فلسفية عظيمة أخرى – وهي ان المعرفة كي تكون حقيقية لا بد لها ان تكون فعالة . وهذا ، بالمصادفة ، كان له مغزى في نظرتهم للأخلاق . فاذا كانت المعرفة غير منفصلة عن الفعل والتطبيق العملي والذي هو بطبيعته نسبي ومتناقض ذاتياً ، فالاخلاقية اذن ، وهي معرفة ما هو خير وما هو شر ، غير منفصلة ايضاً عن التطبيق العملي وهي ايضاً نسبية ومتناقضة ذاتياً . لقد كان اسبينوزا من قال « ان تكون هو ان تعمل وان تعرف هو ان تعمل ايضاً » وهذه الجملة تبعد خطوة واحدة فقط عن قول ماركس « لم يقم الفلاسفة حتى الآن الا بتفسير العالم والمهمة من الآن فصاعداً هي تغييره » .

وختاماً فقد آمن كل هؤلاء المفكرين من اسبينوزا حتى ماركس بوحدة الاهداف والمصالح البشرية وكان هذا مفهوماً ضمناً في مواقفهم من اليهودية. اننا نلتفت الآن بأفكارنا الى اولئك المؤمنين بالانسانية من خلال الضباب الدموي لعصرنا ومن خلال دخان غرف الغاز – التي استخدمها هتلر – ذلك الدخان الذي لن تقوى الرياح مهما كانت عاتية على تبديده . لقد كان اولئك «اليهود اللايهود» متفائلين بالضرورة ، وبلغ تفاؤلهم اوجاً يصعب الوصول إليه في عصرنا . لم يتصوروا انه بأمكان اوروبا المتمدنة في القرن العشرين ان تغرق في اعماق البربرية بحيث تصبح « وحدة المصالح والاهداف الانسانية » خدعة شريرة في نظر اليهود . وكان هاين من بينهم جميعاً يدرك بحدسه وبحسه الشاعري ما

سيحدث عندما حذر اوروبا بان تحترس من هجوم ضار للحكام الالمان القدامى وعندما تفجع لمصير اليهودي المعاصر المظلم ذلك المصير الذي يفوق الوصف والشمول . ان هذا المصير مفجع لدرجة انهم « سيسخرون منك عندما تتحدث عنه ، وهذه هي الفاجعة الكبرى ».

ان هذا الهاجس لم يكن موجوداً عند اسبينوزا أو ماركس . أما فرويد فقد ترنح ، عقلياً ، في سنه المتقدمة ، أمام ضربات النازية . وأما تروتسكي فقد تلقى صدمة قوية حين وجد ان ستالين يستخدم ضده الروح اللاسامية القديمة . وكان تروتسكي قد رفض رفضاً باتاً المطالبة « بالاستقلال الثقافي » لليهود وهو ما طالب به الحزب الاشتراكي اليهودي (Bund) عام ١٩٠٣. لقد فعل ذلك باسم وحدة اهداف ومصالح اليهود وغير اليهود في المعسكر الاشتراكي . وبعد ربع قرن من هذا تقريباً ، وبينما كان منشغلاً في صراع غير متكافىء مع ستالين ذهب تروتسكي الى خلايا الحزب في موسكو لشرح وجهة نظره فقوبل بغمزات قاسية ليهوديته وباتهامات لا سامية صريحة . وقد جاءت هذه الاتهامات من اعضاء في الحزب الذي قاده مع لينين اثناء نشوب الثورة وخلال الحرب الاهلية . لقد لجأ ستالين مرة أخرى وبشكل اكثر علانية وخطورة بعد ربع قرن من ذلك وبعد مذابح اليهود الشهيرة في اوستويتز وماجدنداك وبلسن ، الى التعريض باليهود .

ان ذبح النازيين لستة ملايين يهودي ، وهي من الحقائق الثابتة ، لم تحدث انطباعاً عميقاً في شعوب اوروبا ولم تهز ضمائرهم حقاً بل تركتهم غير مبالين تقريباً . فهل كان ايمان الثوريين اليهود العظام المتفائل بالانسانية مبرراً ؟ هل ما زلنا قادرين على مشاركتهم ايمانهم بمستقبل الحضارة ؟

انني اسلم بانه سيكون من الصعب ، بل ومن المستحيل ، ان يحاول احد الاجابة على هذه الاسئلة بطريقة ايجابية فيما اذا انطلقنا من منطلق يهودي

صرف. أما انا فلا استطيع ان اعالج القضية من منطلق يهودي بحت ، وجوابي هو : نعم ، ان ايمانهم له ما يبرره . وعلى اية حال فلقد كان مبرراً إلى مدى ايماننا بأن وحدة الاهداف والمصالح المشتركة والمطلقة للبشرية هي من الشروط الضرورية للحفاظ على الانسانية ولتطهير حضارتنا من بقايا البربرية الكامنة فيها والتي ما زالت تنفث سمومها .

فلماذا ترك مصير اليهود الاوروبيين شعوب اوروبا وغيرها من شعوب العالم بحالة من عدم المبالاة تقريباً ؟ لسوء الحظ ،كان ماركس أصوب نظراً منا عند ما ادرك موضع اليهود من المجتمع الاوروبي قبل وقت طويل من الموعد الذي ادركنا ذلك فيه . فالجزء الاساسي من المأساة اليهودية تكون نتيجة لتطورات تاريخية طويلة بحيث أصبحت الجماهير الاوروبية معتادة على تحديد هوية اليهودي بالتجارة والسمسرة واقراض النقود والاثراء . وعليه فقد أصبح اليهودي بنظر العقل الشعبي ، رمزاً ومرادفاً لهذه الاعمال . فاذا ما بحثنا في قاموس اكسفورد الانجليزي وتابعنا كيف يعطي المعنى الشائع لعبارة « يهودي» نجده يقول في البدء ، انه الشخص الذي ينتمي « للجنس العبري » ثم يقول عن الاستعمال العامي بانه « شخص ميال إلى ابتزاز الاموال ، أو قادر على عقد صفقات يغبن فيها الطرف الآخر . ويقول المثل العامي « ثري كاليهودي » . وتستعمل الكلمة بالعامية كفعل متعد فقاموس اكسفورد يفسر كلمة « يهوّد » (To Jew) ، بانها تعني « يخدع أو يمكر بـ » . ان هذا يمثل التصور العامي المألوف لليهودي وهو في نفس الوقت اجحاف شائع يلحق به وهذا الشعور مثبت في لغات عديدة واعمال فنية عديدة لا تقتصر على اللغة الانجليزية أو تاجر البندقية فقط .

ومهما يكن من أمر فان هذا ليس هو التصور المألوف الوحيد لدى العوام . ففي احدى المناسبات – قبول روتشيد كاول يهودي في مجلس العموم البريطاني – دافع ماكولي عن حق اليهود بدخول مجلس العموم وكانت حجته في ذلك كما

يلي : اذا كنا قد سمحنا لليهودي بادارة شؤوننا المالية الخاصة بنا فلماذا لا نسمح له بالجلوس بيننا ، في البرلمان ، وان يكون له رأي في ادارة جميع شؤوننا العامة ؟ كان هذا صوت برجوازي مسيحي اتخذ نظرة جديدة نحو شايلوك* ورحب به كاخ .

انني اعتقد ان الذي مكن اليهود من البقاء كطائفة منفصلة هو انهم مثلوا نظام اقتصاد السوق بين ظهراني شعب يعيش في اقتصاد طبيعي كما اعتقد أن هذه الحقيقة ، بذكرياتها لدى الشعب ، كانت مسؤولة ولو جزئياً عن عدم المبالاة التي أبداها سكان اوروبا نحو ابادة اليهود . وكان من سوء حظ اليهود انه عندما تحولت شعوب اوروبا ضد الرأسمالية فعلت هذا بسطحية كبيرة ، وفي النصف الاول من هذا القرن فقط . وهي لم تهاجم جوهر الرأسمالية ، أو علاقاتها الانتاجية أو تنظيمها للملكية والعمل وانما هاجمت مظاهرها وزخارفها القديمة والبالية والتي كانت في الغالب يهودية . هذه هي النقطة الحاسمة في المأساة اليهودية . إن الرأسمالية العفنة تجاوزت زمنها وقادت البشرية الى منزلقات خلقية ! وقمنا نحن اليهود بدفع الثمن وربما كان علينا علاوة على ذلك ان ندفع المزيد .

لقد دفع هذا الامر اليهود الى أن يعتقدوا ان اقامة دولة خاصة بهم سيكون هو طريق الخلاص ، بينما رأى معظم الثوريين العظام الذين اعرض لميراثهم ، ان الحل المطلق لمشاكل عصرهم وعصرنا لا يكون في اقامة دول قومية وانما بالتطلع إلى مجتمع أممي . فهم بوصفهم يهوداً ، كانوا الرواد الطبيعيين لهذه الفكرة والا فمن يكون اجدر من اليهودي بلدعوة إلى مجتمع المساواة الأممي الذي يزول فيه التعصب القومي والديني سواء كان تعصباً لليهود أو لغير اليهود ؟

لقد اجبر انحلال الدولة القومية الاوروبية اليهودي على اعتناق فكرة الدولة القومية . هذه العبارة الموهمة بالتناقض تكمل المأساة اليهودية ، ذلك أن الدولة

* شايلوك : شخصية تلعب دور اليهودي في مسرحية شكسبير « تاجر البندقية » . (م)

القومية في عصرنا الحاضر اصبحت تنطوي على مفارقة تاريخية وهي شيء بال .
ان هذا الكلام لا ينطبق فقط على دول اسرائيل بل يشمل الدول القومية في روسيا والولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والمانيا وغيرها من الدول التي تجاوزت زمانها . أليس من الواضح انه في وقت تختصر فيه الطاقة الذرية حجم العالم كل يوم وفي وقت بدأ فيه الانسان رحلته بين الكواكب السيارة واصبح القمر الصناعي يحلق فوق اراض أكبر دولة قومية في بضع دقائق أو ثوان ، أليس من الواضح في مثل هذه الاحوال ان التكنولوجيا جعلت من الدولة القومية مهزلة وامارة صغيرة من امارات عصر الآلة التجارية ؟

سيكون من الصعب حتى على الدول القومية الفتية والتي برزت كنتيجة لنضال ضروري وتقدمي خاضته الشعوب المستعمرة (فتح الميم) وشبه المستعمرة كالهند ، بورما ، غانا والجزائر وغيرها من الدول ، سيكون من الصعب عليها الاحتفاظ بطابعها التقدمي لمدة طويلة . ان هذه الدول تشكل مرحلة ضرورية في تاريخ بعض الشعوب ولكنها مرحلة لا بد لهذه الشعوب من ان تتخطاها ايضاً كي تجد اطارات ارحب لوجودها . وفي عصرنا الحاضر سرعان ما تتأثر أية دولة قومية ، بعد تكوينها ، بالانحلال العام لهذا الشكل من التنظيم السياسي . وهذا ما بدأ يظهر في التجارب القصيرة لكل من الهند وغانا واسرائيل .

لقد دفع العالم باليهودي لان يعتنق فكرة الدولة القومية وان يجعلها فخره واملـه في وقت لم يبق فيه أمل بهذا النوع من الدول . ان الملامة تقع على العالم لا على اليهودي . ولكن يبقى على اليهود ، على الأقل ، ان يدركوا ان اندفاعهم الشديد « نحو التحرر القومي » جاء تاريخياً متأخراً . فهم لم يستفيدوا من حسنات الدولة القومية في عصور كانت فيها هذه الدولة واسطة للتقدم وعاملاً ثورياً وموحداً في التاريخ بل جاء امتلاكهم لها في وقت أصبحت تشكل فيه

عنصراً من عناصر الفرقة وعدم التكامل الاجتماعي .

وانني آمل بأن يدرك اليهود ومعهم امم أخرى ان الدولة القومية أصبحت غير ملائمة وآمل ان يجدوا طريقهم للرجوع الى الميراث الخلقي والسياسي لعباقرة اليهود الذين تخطوا يهوديتهم وتركوا لنا رسالة التحرير الانساني الشامل .

من هُـوَ اليَهُودي

ان مجرد الحاجة الى طرح سؤال : « من هـو اليهودي » ؟ يبعث في نفسي شعوراً غريباً بأنني على وشك ان اناقش أحد المواضيع المتداولة في عدد كبير من الروايات من كافكا الى نيجل دنيس : هويات مفقودة أو اناس يصعب تحديد هويتهم .

كيف يمكن لأحد ان يتوقع من مفكر يهودي ان يحـــدد هويته بتقاليد العقيدة اليهودية البالية والمترمته والمسلم بصحتها في وقت يرفض فيه العديد من المفكرين الطقوس الدينية والمحرمات والفرائض في أية ديانة من الديانات ؟ كنت احسب قبل ثلاثين عاماً ، وما زلت اعتقد بذلك جزئياً الآن ، ان سؤالاً مثل : « ما الذي يحدد هوية اليهودي ، المثقف اليهودي؟» هو سؤال غير وارد على الاطلاق. فلا يكفي ان نسأل السؤال حول هوية المفكر اليهودي « مجرداً » ، وسيكون التحدث عنه بوصفه مظهراً للأنانية الكبرى التي تظهر في نوع من الفراغ في الخلود اليهودي ، حديثاً غير مثمر . ان السؤال يدور حـول هوية المفكر اليهودي — أجل ولكن في أي مجتمع بشري ، وفي أية محيط ، وفي اية علاقة لمشاكل عصرنا؟ انني أشعر بان هذه هي الطريقة التي يمكن ان يطرح بها السؤال— اذا كان لأحد ان يطرحه .

وانه لمجافاة للحقيقة، ومما لا طائل تحته، ان يعني المرء بصورة كلية وقسرية بالفلسفة الذاتية للمثقف اليهودي محاولاً ان يعرف نفسه دون الرجوع الكافي للعالم الخارجي وللخصومات التي تمزقه وتجعل البشرية مجزّأة. وايضاً، اذا كنا معنيين بمركز اليهودي في المجتمع فعلينا ان نبحث في الحال عن اليهودي الذي نتوخاه وعن نوع المجتمع الذي نفكر فيه. هل هو اليهودي الذي يعيش في مجتمع امريكي او سوفييتي؟ في بريطانيا؟ في فرنسا؟ في المانيا او في اسرائيل؟ ان مكانة اليهودي تتفاوت في كل مجتمع من هذه المجتمعات فما هي الصفة المشتركة الموجودة بين مواقف وادوار ووظائف اليهود في مثل هذه الاحوال المختلفة ؟

وانه لمن الأهمية بمكان، ومما يميز عصرنا، ان اليهودي يشعر الآن، واكثر من أي وقت مضى، بالحاجة الملحة للقيام بمحاولة لتحديد مكانته في البيئة غير اليهودية التي يعيش فيها. وعلى سبيل المثال يعرف المفكر اليهودي ان هناك اختلافاً نوعياً بين دوره ودور المفكر الايرلندي في الولايات المتحدة، فهل خطر للرئيس كنيدي، وهو مثقف ايرلندي، ان يسأل نفسه عن ماهية هويته كمثقف ؟ علاوة على ذلك فان اليهودي مدرك دوماً، وبألم، بان هناك بوناً شاسعاً بين مكانته ومكانة الايرلندي في امريكا. ان دولة «الديمقراطية العظمى» تشعره بأنه سيكون اسوداً آخر.. ولكن بجلد ابيض: وفي الولايات الجنوبية نجد ان اليهودي أشد تعصباً من غيره في حمل فكرة سيادة البيض. وانه لمن الصعوبة بمكان التعرف بهوية شخص ما وسط هذا التشابك من المشاعر والمخاوف والتحامل والغطرسة العنصرية، وكم سيكون اكتشاف تفهم مرضٍ لجميع تعقيدات الموقف من الأمور المستحيلة.

قبل ٣٥ عاماً لم يكن المثقف اليهودي يشعر بأية ضرورة لان يقوم بتحديد دوره وهويته وأنا شخصياً لم اكن لأناقش سؤالاً كهذا، لا لأنني لا امتلك جذوراً في التقليد اليهودي بل على العكس، فقد تربيت في بيئة يهودية، وفي مدرسة

تلمودية صارمة التعاليم في حياتي المبكرة وتظاهرت واعلنت العصيان ضد التزمت الديني اليهودي بيد انني انبهرت بالعناصر التي كانت تعمل في الثقافة اليديشية غير الدينية التي عبرت عن نفسها من خلال الأدب والمسرح . ولقد قمت شخصياً بالكتابة باليديشية ، وخاطبت تجمعات كبيرة من العمال باليديشية في لقاءات غير سياسية في الغالب . وما زلت اتصور امامي جموع الصغار والكبار ، شغيلة وحرفيين ومن المعوزين وهم يتجمهرون في المساء ليستمعوا الى قراءات من الشعر والدراما ، وغالباً ما جاءوا بلباس العمل ليطروا بيرتز ماركيش Pertez Marakis او اتزك مانجر Itzik Menger وهما ينشدان الشعر وجوزيف اوباتوشو او ويزنبرغ وهما يقرآن النثر او نومبرغ H. D. Nomburg وهو يحتفل بذكريات كتاب اليديشية القدامي . ولا نجد مكاناً في العالم بما فيه العالم المتدين ، ولربما يستثنى من ذلك موسكو ، اناساً يهتزون طرباً لكتابهم وشعرائهم كما كان يهتز ويطرب الشغيلة اليهود في وارسو أو في المقاطعات البولندية والتوانية . هنا نجد شكلاً من الوعى الثقافي اليهودي كان يشكل نفسية جديد من خلال خصام عنيف مع الوعى الديني .

ومنذ ذلك الوقت قضيت معظم سنواتي ، تلك التي شهدت نشاطى السياسي ، بين الشغيلة اليهود . لقد كنت اكتب باللغة البولندية واليديشية وشعرت بان هويتي كانت مندمجة بحركة العمال في شرق اوروبا بشكل عام وبحركة العمال البولندية بشكل خاص. وحاولنا بوصفنا ماركسيين، وبشكل نظري، ان ننكر ان حركة العمال اليهودية تمتلك هوية خاصة بها ، ولكنها امتلكت ذلك بالفعل وبدا من الواضح ان المثقف اليهودي قد وجد له دوراً في حركة العمال هذه ، وما كان عليه ان يتحمل مشاق تحديد هويته . وكان مصدر ازدهار الادب اليديشي هو من الطبقة العاملة في اوروبا الشرقية ، غير أن اللغة اليديشية ، تلك التي اتسمت بالقوة والبلاغة والتجدد والغنى ، أصبحت فجأة لغة ميتة . ذلك أن الكتاب والشعراء اليهود التصقوا بحركة العمال اليهودية التي رأيناها فيما بعد تغرق في العدم .

وكما نعلم جميعاً ، فان بعض الاوساط اليهودية في الغرب ذات طبيعة منفرة وبغيضة ، ولا شيء فيها سوى بعض الطقوس الدينية ووفرة من المال ، أما عندنا وفي البيئة التي اعرفها ، فقد حدث العكس ، فلا يوجد اموال ولا شعائر دينية ولكن وفرة في الامل والافكار والمثل . اننا نشعر بازدراء كامل نحو يهود الغرب فرفاقنا هؤلاء مصنوعون من طينة مختلفة .

وكانت قد اتيحت لي الفرصة في اواخر الثلاثينات لكي اكون على اتصال وثيق برجل يكبرني بعشرين سنة تقريباً . لقد ولد هذا الرجل في فقر مدقع ونشأ مع ادنى الطبقات الكادحة ومع ركام المدينـة ، في اسفل درجات السلم الاجتماعي وبقي امياً حتى السابعة عشرة من عمره . وعندما تعرفت به وجدته من افضل مثقفي العمال الذين صادفتهم في أي بلد . لم اعرف أبداً أين تعلم القراءة . ولكنه استوعب بحماس وتلهف في خلايا سجون روسيا القيصرية وسجون بولندا ، كل مـا اعطي له من الادب العالمي والادب الكلاسيكي الاشتراكي وذلك في المحاضرات اللينينية في موسكو وفي حلقات النقاش داخـل الحركات السرية الثورية . لقد كان هذا الطفل الذي نشأ في اقسى انواع الفقر اليهودي يفضل دوماً ان يحوز على مقدار ضئيل من المعرفة على ان يظفر بمقدار وافر من الخبز وكانت الثورة الروسية الاولى عام ١٩٠٥ بمثابة الوهج الذي انار له آفاقـه ، وعلى ضوئها — وفي داخل السجن وخارجه — قام بقراءة مؤلفات ماركس ، انجلز ، كاوتسكي ، وقرأ روايات تولستوي واشعار ميكويكز ومسرحيات بيريتز . وكتب مرة في مذكراته يقول « لو لا قيام الثورة لكنت قد غرقت في مستنقعات عالم الرذيلة والاجرام في شارع سموكا » . ولكنه ترك شارع سموكا بغانياته ومواخيره ، بنشاليه ولصوصه ، بانحـلاله الخلقي والمادي تركه بعيداً وراءه . حقاً ، لقـد ارتفع من وادي الدموع في طفولته الى القمم الروحية لعصره . لقد كان عليه أن يعرف لماذا يكافح واستطاع ان يفعل ذلك فلم تكن له منزلة في المجتمع الذي ولد فيه — وكرّس حياته لتغيير ذلك . وكان في طليعة

الشغيلة اليهود الذين عملوا في مقاطعة وارسو . كان جميع هؤلاء يحملون هويتهم مطبوعة على جباههم وفي عيونهم وفي ايديهم الكادحة المتعبة . أما نحن ، المثقفين اليهود ، الذين ُعنُوا بهؤلاء ، بتطورهم وثقافتهم ، بتطلعاتهم ورغباتهم فقد كان لنا ايضاً هويتنا المحددة بدقة وبدون أن نبحث عنها مطلقاً .

كان على البرجوازيين ذوي النفوذ من اليهود الغربيين ان يحملوا كتبهم الدينية ، كشيء سوف يعزز من شعورهم بكرامتهم واحترام الاخرين لهم ، وكان عليهم أن يجاروا جيرانهم من مسيحيي الطبقة الوسطى الذين يحملون كتابهم المقدس عند ذهابهم للكنيسة كل يوم احـــد . أما نحن فاننا نملك كرامتنا ولا حاجة لغير ذلك . ومع أننا كنا نعرف التلمود الا اننا كنا نحس أن كل مـــا فيه من مثاليات لم يكن اكثر من ذر للرمـاد في العيون . لقـــد نشأنا في ظل الماضي اليهودي وكان تاريخ القرن الحـــادي عشر والثالث عشر والسادس عشر يعيش في الباب المجاور لنـــا وتحت سقفنا بالذات ، ولكننا قررنا الفرار منه والعيش في القرن العشرين . لقد استطعنا ان نرى ونشم ضبابيـــة ديانتنا البالية ونمط الحياة الذي لم يتغير منذ القرون الوسطى ، من خلال البريق الخادع السميك ، ومن خلال طلاء الخياليين امثـــال مارتن بوبر . وبالنسبة لشخص يمتلك خلفيتي فانه ينظر الى الرغبة الحديثة لليهودي الغربي في العودة الى القرن السادس عشر ، تلك الرغبة التي يفترض ان تساعده في استرداد او اعادة اكتشاف هويته اليهودية الثقافية على انها رغبة غير حقيقية وغير أصيلة .

لننتقل الآن من الذكريات الشخصية الى قضايا اكثر عمومية . عندمـا يثير أحدهم مسألة الهوية اليهودية يبدأ بافتراض وجود هـــوية ايجابية . ولكن هل نحن مؤهلون لوضع مثل هذا الافتراض ؟ إلا يكون الوعي اليهودي في هـــذه الفترة من تاريخ العالم ، انعكاساً ، بصورته الرئيسية ، للضغوط المعادية للسامية ؟ انني اعتقد بانه لو لم تكن المعاداة للسامية قـد اثبتت عمق جذورها وتواصلها وقوتها في الحضارة المسيحية الاوروبية لمـا ظهر اليهود اليوم كطائفة متميزة ،

بل لاصبحوا مندمجين كلياً . ان الذي كان يعيد خلـــق اليهودية باستمرار ، ويمنحها حيوية متجددة هو عداء البيئة المسيحية . لم ير اسبينوزا ، قبل ثلاثمائة عام، ما يثير الدهشة لكون ان اليهود قد حافظوا على بقائهم بالرغم من تشتتهم وفقدانهم لدولتهم مدة طويلة من الزمن، فهو يفسر ذلك فيقول «لقد تعرضوا للبغض الشامل بانقطاعهم كلياً عن الشعوب الأخرى » . وهو يعزو بقـــاءهم لعداوة الآخرين: ويذكّر بأنه عندما خيّر ملك اسبانيا اليهود بين القبول بديانة مملكته او الذهاب الى المنفى ، اعتنق عـدد كبير منهم الديانة الكاثوليكية ومن ثم منحوا الامتيازات وعوملوا بنفس الاحترام الذي يعامل به المواطنون الآخرون. وسرعان ما اعتبروا انفسهم من الاسبان ، وبعد سنوات جرى اندماجهـــم بالسكان المحليين . أما في البرتغال فقد حدث العكس . فعندما اجبر ايمانويل الاول اليهود على اعتناق ديانته « تحولوا » بالفعل، ولكنه بقي يعتقـد بانهم لا يستحقون أي مركز محترم ولهذا بقوا منفصلين عن المجتمع البرتغالي .

ويمكن للمرء ان يقول ان ما يوقظ مثل هذه المشاعر السلبية لا بد ان يكون في ذاته ذا صفة أو هوية محددة ايجابياً . مهما يكن من أمر ففي نهاية القرن كانت « هوية اليهود المحددة ايجابيـاً » تمر في طور الانحلال . والحقيقة ان الصهيونية برزت الى الوجود كاحتجاج ضد هذا الانحلال في حين ان الاشتراكية الاوروبية قبلت ، بشكل عام ، اندماج اليهود وشجعت على ذلك كجزء من حركة اوسع واكثر تقدمية وكنتيجة لما يفترض في المجتمع الحديث ان يقوم به من التخلص من كل الاعراف القومية والاقليمية .

لقد كان العنصر الايجابي في الهوية اليهودية متأصلاً ، ولقرون عديدة في الدور الاستثنائي الذي لعبه اليهودي في المجتمع الاوروبي. ففي عصر الاقطاع وبداية الرأسمالية كان اليهودي يمثل نظام الاقتصاد النقدي وافكار هذا النظام في نظر

شعوب كانت افكارها تتطلع نحو قيـــام اقتصاد طبيعي . ولم يكن من قبيل المصادفة ان تتخذ صورة اليهودي في ذهن المسيحي شكلاً رمزياً مثل شيلوك او فاجين ذلك الرمز الذي يظهر في الأدب العالمي في روايات وترجمات عديدة . كذلك لم يكن الحقد هو الذي دفـع ماركس ليقول ان الرب الحقيقي لليهودي هو المال . لقد تعمد هذا لا لكي يدين اليهودية خلقياً وانما ليقول جملة حقيقية حول الدور الخاص لليهودي في المجتمع المسيحي . ومضى ماركس ليقول ان المجتمع المسيحي بنموه في اتجـاه رأسمالي متصاعد انما يصبح « مهدوداً » اكثر فأكثر . لقد كان مقتنعاً أنه عندما يبدأ المجتمع الاوروبي بالتحول من الرأسمالية الى الاشتراكية يكف اليهودي والمسيحي على السواء عن كونهما « يهودي » او « مسيحي » . وفي حياة ماركس التي شهدت عصر الاندماج ، كانت هويـــة اليهودية تمر في طور التلاشي ، على الأقل في غرب اوروبا .

انني اعتقد بأن الاحداث المأساوية للعهد النازي لم تبطل التحليل الماركسي الكلاسيكي للمسألة اليهودية وهي لا تدعو الى اعادة النظر فيه . ومن البديهي ان الماركسية الكلاسيكية لم تقر او تسلم بأي شيء مثل « الحـل النهائي » الذي قام به النازيون او التعقيدات المميتة المشكلة في فترة ستالين والفترة التي تلتها في الاتحاد السوفياتي . لقد ارتأت الماركسية الكلاسيكية تطوراً صحياً واكثر انسجاماً مع الطبيعة العامة لحضارتنا الا وهو الانتقال الزمني من المجتمع الرأسمالي للمجتمع الاشتراكي. ولكنها لم تأخذ في حسبانها استمرار بقاء الرأسمالية بآثارها الانحلالية على الحضارة بشكل عام. ومع ذلك فان ماركس وانجلز وروزا لوكسمبرغ وتروتسكي قالوا مراراً بأن البشرية تواجه بديلين ، فاما الاشتراكية الاممية واما البربرية . ومن المحتمل ان لا يكونوا قد تصوروا كم كانوا صائبين في قولهم وكم ان الدليل كان حقيقياً . مهما يكن فانهم لم يستطيعوا ان يتنبأوا بمـــدى العمق البربري الذي ستغرق فيه البشرية اذا فشلت في اعتناق فكرة الاشتراكية .

أما النازية فلم تكن اكثر من مجرد دفاع ذاتي للنظام القديم في وجه الشيوعية.

لقد شعر النازيون بان هذا هو دورهم ، كذلك فقد رآه المجتمع الالماني باكمله من خلال هذا الدور ، ودفعت اليهودية الاوروبية ثمن بقاء الرأسمالية ونجاحها في حماية نفسها من الثورة الاشتراكية . ان هذه الحقيقة لا تدعو إلى اعادة النظر في التحليل الماركسي الكلاسيكي — انها على الأرجح تؤكد على صحة هذا التحليل . ان مصير اليهود لا يضعف من قناعاتي الماركسية بل على العكس فانه يدعمها ويثبتها .

ان الماركسية بوصفها طريقة ومفهوماً مادياً للتاريخ ، تساعد على تحليل القوى التي تشكل المجتمع . فاولئك الذين استخدموها كطريقة للتحليل كان لديهم حسّ داخلي — وبالنسبة لتروتسكي رؤية خارقة — بالوحشية التي هددت بابتلاع اوروبا . غير ان الرعب الكامل والانحلال والطبيعة المرضية للنظرية والتطبيق النازي فاقت كل التصورات الطبيعية والمعقولة للبشرية .

وانها لمأساة وحقيقة مروعة ان يكون هتلر هو أكبر « مجدد » للهوية اليهودية ، وهذه تعتبر احدى اصغر الانتصارات التي حققها بعد موته . لقد كانت مذبحة اوستويتز بمثابة السرير الهزاز والمرعب للوعي اليهودي الجديد وللامة اليهودية الجديدة . وانه لأمر غريب ومؤلم ان يفكر اولئك الذين اكدوا على اليهودية وبقائها ، بان ابادة ستة ملايين يهودي قد اعطت الحياة لليهودية . لقد كنت افضل ان تهلك اليهودية مقابل ان يحيا ستة ملايين رجل وامرأة وطفل ، فمن رماد الموتى أطلت العنقاء اليهودية . فيا له من انبعاث !

وها هي هذه الهوية الجديدة التي انبعثت بشكل مفجع تصرخ الآن وتئن وهي تحاول أن تحدد ذاتها وتستقر في الحقيقة التي تحطمت بالماضي القريب ، ان هذا الجهد اليائس سوف يكون عقيماً اذا ما بني على أساس المعالجة اليهودية البحتة . فمن الذي يذهب للبحث عن هويته اليهودية ؟ هل هو سير اسحق ولفسون أم منديس فرانس ؟ أهو بن غوريون أم لازار كاغانو فيتش ؟ الحاخام الأكبر لبريطانيا أم انا شخصياً ؟

بالنسبة لي شخصياً ، فان الطائفة اليهودية ليست إلا ناحية سلبية. فلا يوجد أي شيء يجمع بيني وبين اليهودي في حي « ميشيرم »* بالقدس مثلاً ، أو بيني وبين أي فئة من القوميين الاسرائيليين . ان الجناح اليساري الماركسي في اسرائيل يسترعي انتباهي ولكنني أشعر بأنني أقرب الى ذوي الذهنيات المماثلة من الناس الموجودين في فرنسا ، ايطاليا ، بريطانيا واليابان أو الى تلك الجموع الاميركية التي خطبت بها في واشنطن وسان فرنسيسكو في اجتماعات الاحتجاجات الضخمة ضد الحرب في فيتنام . فهل سنقبل الآن بالفكرة القائلة بأن الروابط العنصرية أو رابطة الدم هي التي تكون الطائفة اليهودية . ألا يكون هذا انتصار آخر يحرزه هتلر وفلسفته المنحلة ؟

وإذن ، فما الذي يجعل من المرء يهودياً ان لم يكن هو العرق ؟ هل هو الدين؟ إذا كان كذلك فأنا ملحد . هل هو القومية اليهودية ؟ انني أممي . إذن انا لست يهودياً في كلا المعنيين . مع ذلك فأنا يهودي بقوة تضامني المطلق مع المضطهدين والمعدمين . أنا يهودي لأنني أشعر بأن المأساة اليهودية هي مأساتي الشخصية لأنني أتحسس نبض التاريخ اليهودي ولأنه ينبغي عليّ أن أعمل بكل طاقتي لاتأكد من سلامة اليهود الحقيقية غير المزيفة ومن احترام الذات اليهودية .

ان الاختلاف في الخلفية وفي ظروف الوجود التي تفصل بين سير اسحق ولفسون أو الحاخام الأكبر لبريطانيا وبيني ، أو بينهما وبين صديقي البولندي — الذي سبق ان وصفته عامداً — يؤكد على التعارض في طريقة معالجة المشكلة على أساس يهودي بحت . ان تحديد هوية اليهودي أمر محيّر تماماً لأن حياة اليهود في المنفى عرضتهم لمختلف انواع التأثيرات والضغوط الهائلة وكذلك الى تنوع الوسائل التي كان عليهم استخدامها كي يحمو أنفسهم من العداوة والاضطهاد. ان انهماكي بالقضايا اليهودية قبل الحرب يعتبر، بدون شك ، تدخلاً هداماً ونوعاً من الهرطقة وبعداً مطلقاً عن اليهودية في نظر جميع رعايا الكنائس اليهودية في

* (Mea Shaarim) . حي ديني يهودي في القدس . (م)

نيويورك وباريس ولندن .

ان الحديث عن « المجتمع اليهودي » كوجود كامل ومستقل لا معنى له ولا سيما ، للمؤمن بالمبادىء الماركسية . ان الماركسي ينظر الى جميع المجتمعات من زاوية تقسيماتها الطبقية إلا ان « المجتمع اليهـــودي » بالاضافة الى احتوائه على طبقات اجتماعية متمادية فانه جغرافياً منقسم . ان التقاليد الثقافية للامم التي عاش اليهود في بلادها كأقليات، قد تركت تأثيراتها فيهم بصورمتفاوتة، وتركت على نظرتهم العقلية طابعاً يختلف من شخص الى آخر . (وعلى سبيل المثال ، لا يزال التوتر والعداء قائماً بين اليهود الالمان ويهـــود شرق اوروبا الأمر الذي يشكل موضوعاً لعدد لا يحصى من النكات الساخرة حتى في اسرائيل) .

كانت الحياة اليديشية الثقافية العلمانية في شرق اوروبا مرتبطة عضوياً بحركة العمال، وبعد الآن فانه من المستحيل اعادة احياء هذه الحياة وهذه الحركة. ان الحركات التي تفرعت عنها هي الآن في طور الانقراض. فاذا كان للمرء ان يرعى اللغة اليديشية فستكون رعايته محدودة كأي تقليد يصعب اضافة شيء إليـــه . وأذكر انني كنت أناقش هذا السؤال منـــذ اربعين عاماً مع موشي نادر وهو ممن امتلكوا ناصية اللغة اليديشية ومن أكبر المتفهمين لهذه المشكلة في ذلك الوقت. كان الناس قد شرعوا يناقشون فرص احياء او تطوير اليديشية في امريكا . وكان نادر متشككاً وهو يقول : « انا لا اؤمن بأن اليديشية ستبقى . ولكن لا يزعجني ان لا تدوم » . اذا انقرضت لغتنـــا فاننا ، نحن كتاب اليديشية ، سوف نُقرأ وندرّس كاساتذة لأي أدب منقرض ، كاليونانية او اللاتينية ، سوف نصبح ذوي شهرة تاريخية وأدبية وسوف تقرأ الأجيال القادمة مقطوعاتي الهجائية كما نقرأ الآن وندرس مقطوعات « هوريس او اوفيد » .

ان عبارة نادر المتناقضة ظاهرياً قـــد اصبحت صحيحة وعلى نحو أدعى للتشاؤم مما كان نادر يتصوره . فرغم عدم مبالاته لمصير اللغة ، فانه على الأرجح

ميال إلى ان يُشرك قراء الانجليزية في تذوق الشعر والنثر اليديشي ويحمل اليهم غنى الأدب الذي ورثته اليديشية . ولكنه كان يدرك ان هـــذه الجهود مهما اتسمت بالذكاء والدقة والمحبة ستبقى ذات أثر ضعيف فمع ان عشرات الآلاف من اليهود ما يزالون ينطقون باليديشية غير ان هذا اساس ضيق لنمو أي أدب أو حضارة حية .

ان بقايا اليهود مشتتون في جميع أنحاء العالم ولكن بعض التقاليد العلمانيـة قد تجد لها صياغة في لغات أخرى . والعنصر اليهودي احتل مكانة بارزة في الرواية الاميركية ، ولكن هذا لن يساهم بأي درجة في بقاء اليهودي الخالص الاصيل . ومنـــذ زمن طويل وحتى اليوم يتجادل الكتاب اليهود حول هوية الكاتبين هاين وبورين ، هل همـــا من اليهود أم انهما يعتبران ببساطة ، من الالمان ؟ ليس هناك جواب محدد تماماً . لقـــد خاض هاين صراعاً طويلاً مع المشكلة اليهودية وكذلك فعل بورين . وقد علق هاين على اعتناق بورين المسيحية قائلاً : « لقد كنت بالأمس بطلاً ، أما اليوم فلست أكثر من وغد » . ومع هذا فقد كان هاين يمهد لخطوة مماثلة حتى يجعل من تعميده « بطاقة دخول للحضارة الاوروبية » . ولقد كان عبء يهوديتهم خفيفاً على الاجيال التي تلتهم من امثال فرانز ويرفل وارنولد وستيفان زفايج ، ويزرمان والعديد غيرهم ممن نالوا شهرة عالمية في الفترة التي سبقت العهد النازي .

وهناك عدد غير قليل من الكتاب البولنديين من اصل يهودي أمثال جوليان تويم وانطونيو سلونيسكي وهما من ابرز الشعراء في زمن الحرب . وظهر الباعث اليهودي في كتاباتهم احياناً ولكن بشكل عابر ، إلى ان وقعت مذابـح الغيتو فأعطت ابعـــاداً جديدة لشعرهم . ومع ذلك فلم يكن لديهم احساس عميق بيهوديتهم على غرار اسحق بابل البلشفي مثلاً والذي قاتل في الحرب الأهلية فنجا ثم غرق في بحر الثورة الروسية .

لقد أدى تركز اليهود في مناطق الحدود في روسيا الى جعل أي نمو روحي عضوي بين اليهود والسلافيين امراً غير ممكن . وفي بولندا اقام اليهود في احياء مهجورة حتى قبل عام ١٩٤٠ .كانت القومية البولندية واللاسامية والاكليركية الكاثوليكية يعملن الى جانب الانفصالية اليهودية ، وعملت الارثوذكسية والصهيونية ، من جهة اخرى ، ضد قيام تكافل مثمر ودائم. وعلينا ان نتذكر بأن منظّري الصهيونية ، وليس الاشتراكية فقط ، قد تكلموا عن الصفة غير المنتجة « للنظام الاقتصادي » اليهودي في المنفى ، ولذلك فان العداوة بين العناصر المنتجة والعناصر غير المنتجة في المجتمع كانت امراً حتمياً في أية حال ، ولقد نما على هذه العداوة الاجتماعية والاقتصادية عبر القرون ، البناء الفوقي الضخم للغربة الايديولوجية . فلم تظهر في بولندا أي صلة بين الأدب البولندي والأدب اليديشي . وبعبارة أدق ، لم يكن الكتاب والاكاديميون والمثقفون البولنديون مدركين حقيقة ان وارسو كانت مركزاً للادب اليديشي المعاصر والمزدهر الذي يقرأه اليهود وينال الاعجاب في جميع انحاء العالم .

وبحلول نهاية القرن أصبح الموقف في روسيا أشد تعقيداً . كان للثقافة الروسية قدرة هائلة على الاستيعاب وذلك للطابع العالمي للافكار التي غذتها في العصر الحديث مثل افكار تولستوي.وبليخانوف ولينين . لذلك من الصعب تحديد الاثر اليهودي الخاص في الحضارة الروسية . ولقد صادف ان مساهمة اليهود في الأدب الروسي لم تبدأ قبل عام ١٨٩٠ فقد بدأت مساهمتهم مع نشوب الثورة فقط — كانت هذه « بطاقة الدخول » للثقافة التي أبعدوا عنها قروناً عديدة . وفي عصر الثورة كان ليون تروتسكي (يهودي) من اعظم من امتلكوا ناصية النثر الروسي ولم يكن يمارس نفوذه بوصفه يهودياً . أما بالنسبة للادب البولندي فقد تطرق الى المواضيع اليهودية في وقت مبكر وشغلت المسألة اليهودية الشعراء والروائيين قبل ان تستعيد بولندا استقلالها . واخشى ان تكون البواعث اليهودية في شعرهم وروواياتهم دخيلة ومقصودة - وربما تكون

غير مفهومة كلياً لدى الأجيال الصاعدة من البولنديين الذين لم يعاصروا اليهود في بلادهم .

هل بالامكان ازالة كل الآثار التي خلفها اليهود في شرقي اوروبا ؟ لقد تركوا بعض الآثار على وجه التأكيد : ولكن تبقى القضيـــة هي ما اذا كانت هذه الآثار ستحمل من المعاني في المدى الطويل أكثر مما تركه الهنود الحمر على الحضارة الاميركية . ويصعب على الأجيال الحاضرة من اليهود ان تتقبل حقيقة ان العنصر اليهودي في وسط وشرق اوروبا قد أقصي تماماً بعد ان كان له وزن كبير .

ويوجد الآن تحول جديد واساسي في حياة اليهودي وهويته في اسرائيــل . ان اللغة العبرية تشكل الوعي الثقافي لاسرائيل وهي تستمد قوتها من التوراة والتلمود والطقوس الدينية ولذا فهي تغذى باشباح الماضي . ان حي ميشيريم في القدس لم ينتج أدباً على الاطلاق لأن اليهودي المتعصب ينظر الى الكتابة العلمانية بالعبرية ، مهما كان مجالها ، على أنها نوع من التجديـــف على الله . فمهما كانت الطريقة التي ينتهجها الشاب المعاصر كي يؤكد فيها على خلافه مع الدين واستقلاله عنه فان عليه ان ينقب في الماضي كي يحيي اللغة التي ماتت قبل ٢٠٠٠ عام . لقد عاشت هذه اللغة في اللاهوت وليس من اليسير عليها ان تحقق علمانيتهـا . وبالنسبة لي فأنا لا استطيع ان اقبل هذا التحول العبري في الوعي اليهـــودي واتشربه في هويتي . لهذا فقد تكونت ذهنيتي بقوة من التقليد الاوروبي الأممي البولندي الروسي الالماني الانجليزي وقبل كل شيء الماركسي . ان العبرية تنتمي الى طفولتي وفترة مراهقتي . وبما أنني انشققت عنها ورفضتها فلا استطيع الآن ان أعود اليها .

فاذا كنت ماركسياً غير نادم على ماركسيتي وملحــداً وأممياً فبأي معنى ، اذن ، أكون يهوديـــاً ؟ ما الذي سيضعني قريباً من « الطائفة السلبية » ؟ من الغريب فعلا ان أجد نفسي قريباً من مشاركة اليهـودي الارثوذكسي والصهيوني

في مخاوفه . فأنا لا اؤمن بأن اللاسامية قوة مستنفذة ، وأخشى ان نكون في سعادة وهمية ، فشعور التحرر من اللاسامية يمكن ان يكون خداعاً آخر ، خداعاً يهودياً بالتحديد ، أحدثه « مجتمع الكفاية والوفرة » الذي نعيش فيه .

عندما ووجه تروتسكي بظاهرة النازية وصفها بأنها« الرفض الهادىء للفكر السياسي الأمي » والتي ذهبت في صنع « الثروة الفكرية للتفوق الالماني الجديد» وقامت بتحريك وحشد كل القوى البربرية الكامنة تحت سطح رقيق من مجتمع الطبقات « المتمدن ». ولخص تروتسكي جوهر النازية في عبارة جديرة بالذكر، زاخرة بالتحذير المسبق من غرف الغاز يقول فيها : « ان كل شيء كان يقدر للمجتمع ان يرفضه لو تطور بصورة طبيعية (أي نحو الاشتراكية) مثل حثالة الحضارة يقوم بتقيئه الآن ... ان الحضارة الرأسمالية تلفظ الآن بربريتها التي لم تهضم ... » أنا اعتقد بأن مجتمعنا البورجوازي في الغرب(ولسوء الحظ فان هذا ينطبق على المجتمع الروسي في المرحلة التي تلت الرأسمالية) كان قادراً على أن يستوعب ويخلص نظامه من بربرية الأجيال التي مثلها هتلر . وفي العهد الذي راج فيه المذهب العقلاني في التفكير سمعتهم يرددون كيف توقع اليهود حدوث تسامح دولي فقال بعضهم لبعض : « دعونا لا نزعج أنفسنا بالتوراة والتلمود ولنرقص بعد اليوم حول آلهة العقل ». ان آلهة العقل هذه هي التي فشلت فقد كانت آلهة بورجوازية تخدم مجتمعاً لم يسمح له انشغاله بكسب الثروات بهضم البربرية . وفي كل لحظة اتسمت بالفزع الشديد كان هذا المجتمع يثير نزعات « القومية » و « العنصرية » وارهاب الغرباء وإثارة البغض والخوف لديهم .

دعونا لا نتصور الآن أننا سنرقص مرة أخرى ، في هذا الصيف الذي شهد ازدهار بورجوازية ما بعد الحرب ، حول آلهة العقل وانها في هذه المرة لن تخيب أملنا ولكنها ستمنحنا فضائلها في كل شيء والى الأبد . اننا نشاهد حتى في هذا المجتمع الانجليزي السامي بلبراليته ومدنيته صلباناً معقوفة ومرسومة في أماكن متعددة، من بنايات المقاطعات التي تتمتع بسمعة حسنة . واعرف من

خلال تجربتي الشخصية ان البحث عن طابق سكني ، مثلاً ، في حي هاميشيد في لندن يمكن ان يجابـه برد ان الجيران يعارضون سكن الزنجي أو اليهـودي عندهم. ولكن سيرحبون بك بالتأكيد « كاستثناء » . أجل تحت هذا السطح الناعم تكمن البربرية ، خشنة وقاسية ومتحفزة للاندفاع .

قد يكون لدينا انطباع ، هنا ، في دولة تكفل رفاه الشعب بأن اللاسامية قوة مستنفذة لأننا مرتاحون وراضون ومشاكل شعبنا الاجتماعية مبددة . فلندع هذا المجتمع يعانِ من أية صدمة قاسية كما هو محتوم عليه ان يعـــاني ، ولندع الملايين بدون عمل مرة أخرى وسنرى نفس الشرائح المتدنية من الطبقة الوسطى تتحالف مع البروليتاريا الرثة تلك التي عزز فيها هتلر نزعة المعـاداة للسامية . وطالما ان الدول القومية تفرض سيادتها ، وطالما اننا لا يوجد لدينا مجتمع أممي وطالما ان ثروة كل الأمة هي بين أيدي أقلية رأسماليـة وطنية تحكمه فسوف يتواجد لدينا تعصب قومي وعنصري يبلغان ذروتها في المعاداة السامية . ولهذا السبب اعتقد ان دور المفكرين – يهوداً وغير يهود على حد سواء – المدركين لعمق المأساة اليهودية وخطر تجددها هو دور الاحتجاج الأبدي أي المحافظة على معارضة القوى التي تعمل ضد الطقوس الدينيـة والمعتقدات والنضال من أجل مجتمع سوف تنحسر فيه القومية والعنصرية بالنهاية ، وترفما قبضتها عن العقل البشري . وأنا أعرف ان هذا ليس مخرجاً سهلاً فقد يكون محزناً ومؤلماً ، فلن يكون هناك تحديد دقيق لمبادىء العمل بالنسبة لسالكيه ، ولكن اذ تخلينا عن الاحتجاج فسنقع في دائرة خبيثة ومهلكة ، دائرة الانتحار .

عندما ينظر أحد في سجلات المثقفين اليهود في الغرب فانه يخلص باستنتاجات غالباً ما تكون محزنة ومخيبة للآمال . ان الذي يلفت النظر في أمر المثقفـــين اليهود في الغرب هو ، بالتحديد ، ضعفهم السياسي والايديولوجي والاجتماعي . وفي الحرب الباردة التي سيطرت على ارواحنا لمدة تزيد على ١٣ عاماً كان أكثر

الناس شهرة هم من اليهود. ولربما استثنى من ذلك اولئك الذين يعملون بالدراسات العلمية البحتة . أما عندما ننتقل الى روائع العلوم الانسانية فاننا نرى من بين جمهرة المؤرخين والسياسيين وعلماء الاجتماع عدداً كبيراً من اليهود الذين يعملون بقوة في الحرب الباردة لمصلحة هذا المجتمع ببربريته الفوضوية .

واعتقد انه لا يمكن تبرير بحث اليهودي عن هويته إلا في حالة واحدة فقط ألا وهي حالة ما اذا كان ذلك البحث سيساعده في نضاله من أجل مستقبل افضل للبشرية جمعاء .

الثورة الروسيّة والمشكلة اليهوديّة

ان أية معالجة لموضوع الثورة الروسية والمشكلة اليهودية تتطلب من الباحث أن يكون متحسباً في معالجته للامور وذلك لشدة تعقيد المشكلة ولتعدد جوانبها. فلا شيء أسهل، واكثرأذى ، من تبسيطها ، ومحاولة توزيع الملامة — لوم اليهود أو الثورة أو الروس . وعلينا ان نحترس من التفكير في هذه المشكلة بالتعابير المألوفة بشأن العلاقة بين روسيا الثورية والقوميات الأخرى في الاتحاد السوفياتي . بهذا المعنى تكون « المشكلة اليهودية » فريدة من نوعها . ولكي نراها بجميع تعقيداتها الحقيقية ، علينا ان نرجع لأصولها كأن نحلل بإيجاز تركيب السكان اليهود في بداية الثورة وأن نتحقق من مكانة اليهود في المجتمع الروسي وان نتابع التغيرات والتحولات في الثورة الروسية ذاتها وان نقيم اثر جميع هذه التغيرات على مصير اليهود في الاتحاد السوفياتي . ولا بد من ان نجيب بصراحة على السؤال الأساسي التالي : لماذا لم تنجح الثورة الروسية ، في مسار يقرب من نصف قرن تقريباً ، في حل المشكلة اليهودية ؟

يتوجب عليّ ان ابدأ برسم مقارنة دقيقة بين مكانة اليهود في المجتمعات الغربية ومكانتهم في اوروبا الشرقية وخاصة في روسيا ، وبالتحذير من ان النظر إلى المسألة اليهودية في روسيا ، من خلال شكل الحياة اليهودية في اوروبا الغربية ، يعني ان ننظر برؤية مشوهة وان نباشر بتحقيق لن يقودنا إلى شيء .

ويجب ان لا نفكر، ولو للحظة واحدة ، ان الحياة اليهودية والمجتمع اليهودي في اوروبا الشرقية ، وفي روسيا، تشبه حياة المجتمع اليهودي في بريطانيا او فرنسا أو حتى في الولايات المتحدة بأي شكل من الاشكال .

خلال القرن التاسع عشر كان اليهود في اوروبا الغربيـــة ينتمون بصورة رئيسية إلى الطبقة الوسطى. كان هناك عدد قليل جداً من العمال اليهود وعدد من الحرفيين وبعض أصحاب المحلات الصغيرة . فمعظم اليهود كانوا من التجار الذين يقومون بمبادلاتهم على نطاق واسع في عواصم غربيـــة عديدة ، كما كان بعضهم من كبار أصحـــاب البنوك وأصبح آل روتشيلد رمزاً للبورجوازية اليهودية المتغطرسة . وتميز المجتمع اليهودي ، بصفـــة البورجوارية السائدة في الغرب بشكل مناقض لصورة المجتمعات اليهودية في اوروبا الشرقية . صحيح انه وجد في الشرق بورجوازية يهودية وتجـــار واصحاب محلات يهود ولكن الغالبية العظمى من اليهود كانت من الفقراء الكادحين والمهنيين البدائيين وما كان يطلق عليهم بالتضخيم اسم « صناع الأدوات المعدنية » ، ولكنهم في الحقيقـة كانوا من صانعي الاقفال والسمكريين ممن اعتادوا ان يشكلوا لأنفسهم جمعية يسمونها نقابة عمال المعادن . كان انتماء اولئك المعدمين للاتحاد بمثابة عون كبير لهم ، الا ان هذا لم يغير من الامر شيئاً . تصور هذه الملايين من السكان اليهود المعدمين والمشردين أي شعب لا يمتلك جذوراً في البنيان الاجتماعي للمجتمع : بلا وظائف وبلا ارزاق منظمة ، باعة متجولون وصانعوا زيجات يساومون على نسبة حصتهم من المهر .

بعد قيام الثورة الفرنسية تمتع اليهود بمساواة رسمية في نظر القانون في بلدان اوروبا الغربية . (انتخب ليونيل روتشيلد عام ١٨٤٧ أول نائب يهـــودي في مجلس العموم) . وصاحب هـذه المساواة أمام القانون نمو في اندماج اليهود في المجتمع ، فحتى تلك الشرائح التي احتفظت بدينها ووعيهـــا اليهودي اصبحت مندمجة من خلال تبنيها لغة البلاد التي عاشت فيها واكتسبت مظهر المواطنية .

وعاش الملايين من اليهود في شرق الاوروبا ضمن مجتمعات مكتظة بالسكان ومنفصلة عن بيئاتها غير اليهودية . ولم تكن احياء اليهود ذات طابع رسمي ، فقد كان يسمح لليهود بالخروج منها وكانوا يخرجون منها بالطبع . ومهما يكن من أمر فقد عاشوا جماعات منغلقة يرتدون ملابس مميزة يطلقون لحاهم ويتكلمون لغتهم الخاصة ويطورون ثقافتهم وأدبهم . وفي الغالب ، كانت معرفتهم باللغة البولندية أو الروسية شبه بدائية وبقيت اليديشية لغتهم التي ينطقون بها . كان هناك بالطبع أقلية من المثقفين اليهود الذين اندمجوا أكثر فأكثر ولم يميزوا في عاداتهم وتقاليدهم عن عادات وتقاليد المثقفين المحليين . ولكن تطور حياة الجماهير الفقيرة من اليهود المتدينين كان بطيئاً على مسار العصور . فهم ما زالوا يقومون بنوع من التجارة البدائية كالتي مارسها تجار القرن السادس والسابع عشر ، وبقيت طقوسهم الدينية وشعائرهم قديمة وتنطوي على مفارقات تاريخية .

وصاحب عملية اندماج اليهود في أوروبا الغربية تحريرهم في نفس الوقت ،غير ان شيئاً من هذا لم يحدث في اوروبا الشرقية . وكان اليهود في روسيا ، بشكل خاص ، مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة . فلم يسمح لهم بالإقامة في روسيا الأصلية وانما ضمن ما يسمى بالنطاق اليهودي وكذلك حرموا من تملك الأراضي وأغلقت في وجوههم بعض الوظائف . كان وضعهم أفضل بقليل من وضع الفلاحين الروس والبولنديين ، إلا ان الفلاحين لم يكونوا معرضين للمجازر المنتظمة والهبات المعادية للسامية والمذابح الواسعة التي كانت تحدث بصورة عفوية احياناً وبتشجيع من السلطات المسؤولة في أغلب الأحيان . وانها لحقيقة مهمة ان كلمة « مذابح منتظمة » Pogroms هي من أصل روسي رغم انها دخلت الآن معظم اللغات الاوروبية . قبل ٥ سنوات فقط من نشوب الثورة الروسية ووقعت محاكمة بايلس Bayliss في كييف وهي المذبحة التي لخصت وضع اليهود في ظل حكم القيصر . ففي هذه المحاكمة – التي سميت بمحاكمة اغتيال الشعائر الدينية – كان بايلس اليهودي قد اتهم بقتل طفل مسيحي بريء كي يستخدم

دمه في صنع خبز الفطير في العيد. وفي جو من الحنق والاهتياج ظهرت « المئات السود » وهي جمعيات من الرجعيين الارهابيين او من الارثوذكس المتعصبين الذين تبذتهم القيصرية فاصبحوا يعيثون في الارض فساداً . هنا يتبين التفاوت المذهل بين الوجود اليهودي المتمثل في روسيا وبين الحياة اليهودية في الغرب . ويمكن ان يقال انه يوجد في الغرب ايضاً ، هيجان ضد السامية - قضية دريفوس - غير ان هذا كان على مستوى مغاير من التطور الاجتماعي والسياسي . على أية حال ، مما لا شك فيه ان قضية دريفوس شكلت نقطة تحول في تاريخ اليهود في اوروبا الغربية . وقد عانت الحركة التقدمية للتحرر في اواخر القرن التاسع عشر من نكسة كبيرة ، وبدأت اللاسامية باظهار نفسها ثم اخذت بالنمو الى ان بلغت درجة مروعة في العهد النازي . لقد جلب القرن الذي تلا الثورة الفرنسية التنوير والتقدم ومعهما اندماج اليهود ببيئاتهم . أما في شرق اوروبا فقد كان قرن الاضطهاد والعزلة لليهود .

هكذا كانت حالة اليهود في التسعينات من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، حين بدأت الحركة الاشتراكية الديموقراطية بالانتشار ، واخذت تكتسب طابعها الجماهيري . وكثيراً ما يقال ان الموقف من اليهود ، كما نلحظه في روسيا اليوم ، ينسجم مع ما حققه لينين والبلاشفة . واصبح من حكم العادة ، خاصة بين اليهود ، ان يلام البلاشفة والشيوعيون على كل التعاسة التي لحقت باخوانهم المتدينين في روسيا . على أننا عندما نرجع الى المصادر الاولية وعندما نتفحص الوثائق ، نجد انه حتى قيام الثورة كان البلاشفة والمناشفة وحتى الثوريون الاجتماعيون - جميع تيارات الاشتراكية الروسية - متفقين على طريقة معالجة المشكلة اليهودية . وفي هذا الامر كان لينين البلشفي الروسي ومارتوف المنشفي اليهودي ، أو تروتسكي (اليهودي) من ذهنية واحدة . لقد استمدوا افكارهم عن اليهود من الماركسيين الغربيين ؛ ومن ماركس وانجلز على وجه التحديد . فقد قال ماركس في احدى مقالاته الشهيرة عن المشكلة اليهودية التي كتبت في

اربعينات القرن التاسع عشر ان السؤال عن تحرير اليهود لم يعد قائماً بشكل منفصل ، فيجب ان توجه كل المساعي نحو تحرير المجتمع الاوروبي وخاصة المجتمع الغربي من الرأسمالية . فعندما يزاح النير الثقيل للاضطهاد الرأسمالي ينال كل اعضاء المجتمع بمن فيهم اليهود المساواة والحرية .

وفي الكتابات الماركسية المبكرة حول هذا الموضوع ، كان هناك عداء خفي تجاه اليهود لا لأنهم يهود بل بوصفهم قطاعاً بارزاً ومشيراً من البرجوازية في غرب اوروبا . لقد كانت عائلة روتشيلد رمزاً للقوة والتسلط المالي للبرجوازية اليهودية بين الطبقة الوسطى من الفرنسيين والانجليز والالمان . ومن ناحية أخرى فقد كان القادة البارزون للاشتراكية أمثال ماركس ولاسال من أصل يهودي . ولكن مرة أخرى ، وباتجاه نهاية القرن التاسع عشر اصبحت الحركة الاشتراكية منهمكة بأكملها بالمشكلة اليهودية حينما بدأت اللاسامية بالظهور في المجتمع الغربي . وعندئذ كتب اغسطس بيبل ، وهو قائد عظيم للاشتراكية الديمقراطية الالمانية ، مؤلفه الشهير عن اللاسامية مطلقاً عليها اسم « اشتراكية الحمقى » لقد كان تفهمه البارع لجوانب المشكلة اكثر من مجرد ومضه ذهنية عابرة — فالحقيقة هي ان اليهود قاموا بدور تفاخري بين أصحاب البنوك والتجار مما أثار العداوة ضدهم بين الطبقات الافقر في المجتمع الغربي. وحاول بيبل والاشتراكيون الآخرون ومن بينهم كاوتسكي ان يوضحوا للشغيلة بأن عليهم ان يوجهوا نضالهم ضد البرجوازية ككل لا ضد البرجوازية اليهودية فحسب والتي كانت تشكل في النهاية ، جزء من الطبقة الرأسمالية . كانت هذه هي الاشتراكية الحقيقية ، أما الذين يعمدون إلى تغيير البنيان الاجتماعي بالتحول ضد بعض الاعضاء — الأعضاء اليهود — من الطبقة المضطهدة فاولئك هم الحمقى . وإذا ما انعمنا النظر في الأحداث الماضية يمكننا ان ندرك كم كان بيبل Bebel ورفاقه بعيدي النظر عندما أشاروا الى ان الرأسماليين في اوروبا الغربية كانوا على استعداد لان يضحوا بأخوانهم اليهود ككبش فداء بل انهم كانوا مهيأين لتحريض العمال

وصغار اصحاب المحلات ضد البورجوازية اليهودية كي ينقذوا حياتهم واملاكهم الشخصية . فهذا سيكون أيسر طريق كي يبعدوا انفسهم عن البغض الدفين للطبقة المضطهَدة .

لم يكن هناك عمال يهود في اوروبا الغربية وان وجدوا فهم قلة وبالتالي لم يكن هناك حركة للطبقة العاملة اليهودية . وقد ثابر القادة الاشتراكيون على فكرة ان الجواب على المسألة اليهودية انما يكون في الاندماج الكلي . في غضون ذلك كان لينين ورفاقه فخورين باعلان انفسهم تلاميذ للديمقراطية الاجتماعية الالمانية ولهذا فقد آمنوا بأن المشكلة ستحل في روسيا ايضاً عن طريق الاندماج بالاستيعاب الشامل للمجتمعات اليهودية ضمن المجتمع الاشتراكي العظيم . وسرعان ما لاحظوا ان المشكلة في الشرق هي أشد عسراً منها في الغرب وذلك ، بالتحديد ، لأن اليهود الفقراء والشغيلة والشرائح الأدنى في الطبقة المتوسطة عاشوا في مناطق معزولة وفي احياء مكتظة تنتهج اسلوبها الخاص في الحياة . وبالرغم من ذلك كان لينين ومارتوف ، مصممين على دفع اليهود للنضال مع رفاقهم الروس ضد القيصرية وضد النظام القديم الذي حكم اوروبا الشرقية . وقد كانت هذه هي نفس النظرة التي حملتها امرأة ثورية عظيمة من أصل يهودى وهي روزا لوكسمبرغ التي اصرت اكثر من لينين او مارتوف ، على اندماج اليهود .

وفي غضون ذلك ايضاً بدأت الصهيونية بالتطور كحركة سياسية ، مستندة بشكل رئيسي الى دعم الجماعات اليهودية في البلدان الغربية . ويجب ان يلاحظ ان الاغلبية العظمى من يهود اوروبا الشرقيين ، كانوا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، من المعارضين للصهيونية . وهذه حقيقة يندر ان يدركها معظم اليهود في الغرب . كان الصهيونيون يشكلون اقلية كبيرة في الجزء الذين نعيش فيه ولكنهم لم ينجحوا قط في جذب الاغلبية من بني دينهم . وكان الشغيلة أشد

اعداء الصهيونية تعصبا ، اولئك الذين تكلموا اليديشية واعتبروا أنفسهم من اليهود وهم يشكلون أكثر الاعداء تشدداً في معارضتهم لفكرة الهجرة من شرق اوروبا الى فلسطين .

وشهد عام ١٩٣٩ آخر اقتراع لانتخاب قادة الطوائف اليهودية (Kehilas) من قبل السكان اليهود في بولندا . لقد اعتبر الشيوعيون وهم ذوو نفوذ كبير وقتذاك ، ان الـ Kehilas مؤسسات دينية ومن ثم فقد قاطعوا الانتخابات . واشترك حزب البوند Bund ، حزب الطبقة العاملة اليهودية ، والذي يكن عداء شديداً للصهيونية ، اشترك في الانتخابات ونال الاغلبية العظمى من الاصوات . ولم يكن هناك سوى قطاع صغير نسبياً من الحركة الاشتراكية وهو بوالي صهيون Poalcy Zion حاول ان يقرن الاشتراكية بالصهيونية . وغالباً ما ينظر الرأي العام اليهودي في الغرب الى المعاداة للصهيونية بانها معاداة للسامية . ولكن يهود اوروبا الشرقية ، بموجب هذه النظرة ، لا ساميون وهو أمر سخيف بالطبع .

هذه المعارضة اليهودية للصهيونية كانت معارضة مفجعة فقد فشلت وانتهت بهلاك روحي لليهود . لقد رأى أعداء الصهيونية في فكرة الاخلاء عن طريق الهجرة الجماعية من الاقطار القاطنين فيها والتي عاش فيها اجدادهم لقرون عديدة رأوا في هذه الفكرة تخلياً عن حقوقهم ، وكذلك رضوخاً للمعادين للسامية .

وبدا لهم ان اللاسامية تنتصر من خلال الصهيونية فالاخيرة اعترفت بشرعية وصحة الصرخة القديمة « ايها اليهود أخرجوا ! » . لقد كان الصهيونيون موافقين على « الخروج » .

وسرى بين يهود شرق اوروبا شعور اصبح فيما بعد شعوراً عالمياً بأن لا شيء يمكن له ان يخفف من التحيز والاضطهاد الذي يتعرض له اليهود غير قلب نظام الحكم القيصري . ومن ثم كان لليهود دور بارز في الحركة الثورية .

ولكن عندما نشبت الثورة كان للتحول المفاجيء للمجتمع أثر مؤلماً ومشتتاً على قطاع أساسي من السكان اليهود . على ان عدداً كبيراً من اليهود في روسيا كانوا من صغار أصحاب المحلات والحرفيين والمضاربين ومن ثم فان ثورة « الحاجة » قصدت الى إعادة بناء البنيان الكلي لحياتهم . فما توخى الاشتراكيون تحقيقه هو جعل اليهود قوى منتجة وذلك بتحويلهم الى عمال مصانع ومزارعين ، أي الى قوة عمل حديثة . ووجد البقال اليهودي نفسه على شفير الهاوية ، فالنظام الجديد لم يحسن من أمره ، حقاً انه حرره من الخوف من المجازر والاضطهاد ولكنه هدد طريقة حياته كرجل متوسط الحال ، وكتاجر بدائي . وفي عشرينات هذا القرن ، بدأ البلاشفة بتشجيع اليهود على الاستيطان في أراض المستعمرات اليهودية في كريميا Crimea ، كرسون Kherson وبيروبيدجان Birobidjan . ولقد شاهدت أثناء زيارتي لهذه المستعمرات الجهود الضخمة التي قام بها بعض المثاليين من غير اليهود « Goyim » وآخرون من اليهود المتحمسين كي يحولوا جزءاً ، على الأقل ، من السكان اليهود الى مزارعين صالحين . ووضعت استثمارات كبيرة وجهود هائلة لهذه المهمة ، مهمة تغيير عقلية الـ Luftmensch . فقد كان يتوقع منه ان ينبذ فن وأحابيل التجارة الصغيرة وان يلقن تدريجياً فن حراثة وعزق التربة . ولكن كل هذه الجهود في تحويل التاجر الى مزارع باءت بالفشل لسبب بسيط ، وهو ان اليهود ، لم يكونوا مهيأين لمثل هذا التغير العميق والمعقد في طريقة عيشهم الشاملة . وحتى اليوم تعيش في اسرائيل اقلية من السكان ، فقط على فلاحة الاراضي في الكيبوتز ، فالاغلبية العظمى من اليهود لا تزال تندفع الى المدن وتفضل ان تكون مدنية على ان تكون من طبقة المزارعين في الريف . ولا غرابة في ذلك ، فقد كان اليهود لقرون عديدة يقطنون المدن واصبح التقليد المديني طبيعة ثانية لهم . ولم يهاجر من روسيا سوى أشد الصهيونيين مثالية ، اولئك الذين أرادوا الإقامة على التربة المقدسة لصهيون ، هؤلاء فقط هم الذين هاجروا وحملوا المحراث . أما الذين بقوا في الاتحاد السوفياتي فلم يكونوا ميالين الى ان يصبحوا مزارعين فكان عليهم أن

يدخلوا الى ميدان الصناعة . وأصبح العديد منهم عمالاً في مصانع كبيرة ومع ذلك فقد بقي هؤلاء قلة . وأصبحت الغالبية العظمى منهم بتقاليدهم المدنية ومستواهم الثقافي المتفوق على السكان الروس، اصبحوا من العمال ذوي الياقات البيضاء فدخلوا باعداد كبيرة في الوظائف البروقراطية التي تلت الثورة في الحزب والدوائر الحكومية والمؤسسات. ولعبوا أيضاً دوراً عظيماً في المجال الاكاديمي — فحتى اليوم ، ورغم كل الاحتجاج الصارخ، الذي له ما يبرره احياناً، يوجد تحيز ضد السامية ، وهناك أكثر من ٢٥،٠٠٠ استاذ يهودي اكاديمي في الاتحاد السوفياتي . وبالطبع بدأت هذه العملية في التعليم العالي الشامل بعد عام ١٩١٧ عندما فتحت ابواب الجامعات الروسية امام الطلبة اليهود .

وعلى الرغم من كل هذا، وحتى في أشد فترات الثورة بطولة كان هناك تيار خفي قديم ومتواصل من اللاسامية يسري بين السكان الروس. اين نبحث في مصدر هذا السم البغيض ؟ يتوجب علينا ان نبحث فيه قبل كل شيء في التخلف والجهل بين الفلاحين الروس وحتى في قطاع من العمال المدنيين ايضاً . كان هناك النفوذ الحاسم لكنيسة الارثوذكس الشرقيين وهي أكثر الكنائس اعاقة للتقدم بين كل كنائس اوروبا . وكان هناك اسطورة مسيحية متأصلة بعمق وهي ان اليهود هم الذين صلبوا المسيح . ان هذه الاسطورة ، كما نلاحظ اليوم ، نفذت في عقل الحضارة المسيحية كلها بشكل اكثر شمولاً مما تصور الناس ، حتى قبل خمسين عاماً . (كان هناك امل يراود الناس من ان عصرنا الحاضر عصر العلم ، كان يحرر نفسه مبعداً بذلك الاجحاف الديني والتأثير المهلك للاساطير والخرافات) .

وكما هو الحال في في كل مكان ، كذلك في روسيا، فان الحقد والتحيز اللذين غرسا في اذهان الشعب عبر القرون ، لم يكن من الممكن اقتلاعهما في مسار سنوات قليلة أو حتى في عشرات السنين . غير ان هذا لم يكن كل شيء فقد كان هناك عنصر اخر غذى نزعة العداء للسامية عند الجماهير ، فقد كان الفلاح

الروسي الفقير ينظر بعين الريبة الى البقال اليهودي في القرية أو صاحب الحانة الذي كانت تجارته تقوم في الغالب على الاحتيال . ولربما حاول اليهودي ، في ظل هذا البؤس المطبق ، ان يخفف من فقره على حساب الفلاح الروسي الذي كان بائساً مثله . فهنا يمكن ان يلاحظ تكوين الخصومة بين الفلاح الفقير أو العامل تجاه جاره اليهودي .

وعلى مستوى مختلف اثار المثقفون اليهود أو العمال ذوو الياقات البيضاء الذين شغلوا المناصب العالية في الحزب والدولة، في الجيش والمؤسسات المدنية وفي النظام التعليمي ، والمناصب البارزة في الصحافة والسينما والمسرح ، اثاروا نوعاً من الحسد او ما يسمى « بغيرة المهنة » وهناك توضيح يلفت النظر لهذا الجو في المراسلات المتبادلة بين تروتسكي ولينين ابان الحرب . وفيما بعد كتب تروتسكي وهو قائد للجيش الأحمر ورئيس دائرة الدفاع حينذاك كتب رسالة سرية من الجبهة طلب بموجبها ان يسحب اليهود من مكاتبهم ووظائفهم الادارية والعسكرية الآمنة وينقلوا الى الجبهات . ومضى تروتسكي يقول ان هناك همهمات بين الجنود حول وجود الكثير من اليهود في اماكن منعزلة وآمنة اكثر من خط الجبهة في الميدان . وحتى اثناء الحرب الاهلية ، عندما كان الجيش الاحمر يحمي اليهود من مجازر الحرس الابيض كان هناك هذا التوتر المفجع ، ولكنه انساني ومفهوم ، في موقف الروسي العادي تجاه اليهودي « المميز » بشكل أو بآخر .

وسلك البلاشفة في عهد لينين مسلكاً دعاوياً قوياً مضاداً للقومية والدين والقساوسة . وقد قاموا بذلك بنزاهة كاملة شاجبين ومحاولين استئصال أي نوع من القومية واولها الشوفينية الروسية العظيمة ، معلنين المساواة بين جميع الامم الصغيرة والاقليات القومية . وسمح لليهود ، بل شجعوا ، بنشر صحفهم وأدبهم باللغة اليديشية وان يطوروا مسرحهم – وهو من أحسن ما عرفت .

ومن المحتمل ان يكون الناس قد نسوا أن اول مسرح عبري عظيم في

التاريخ وهو الـ Habima «الهابيما» قد أسس في روسيا بمبادرة من المسؤول عن الثقافة وهو أ. ف لوناشرسكي Lunacharsky. ويوجد، بالتأكيد، عدم ترابط في هذه الناحية. فقد كان البلاشفة معارضين، من حيث المبدأ، لفكرة احياء العبرية القائمة كلغة ميتة. وعندما قدمت فرقة الهابيما مسرحية Ansky انسكي الرمزية ديبوك Dybbuk سمعت الاحتجاجات ضد الاساطير الدينية الكلاسيكية على مسرح روسيا الحمراء.

من الواضح ان البلاشفة قد اسرفوا في تفاؤلهم بالنسبة لفرص حل المشكلة اليهودية. ولم يكونوا الوحيدين في استخفافهم بعمق غريزة اللاسامية في العادات والتقاليد المسيحية. لقد توهموا أن ثورتهم ستكون مقدمة لثورة عالمية عريضة فظنوا ان كل القوى التقدمية في المانيا وفرنسا، ستساعدهم للتقدم للامام وان مرض اللاسامية سوف يختفي بالتالي في اوروبا الاشتراكية، المزدهرة والمنظمة عقلانياً. إلا ان هذا لم يحدث وبقيت الثورة الروسية معزولة. امـــا الثورة الالمانية فقد واجهت الهزيمة وبذلـك لم تقدم اوروبا لمساعدة الثورة الروسية. وهكذا تركت روسيا وحيدة، تتحمل نتائج تخلفها الذي ورثته عن القيصرية منذ عصور الارثوذكس الشرقيين وتتحمل ايضاً نتائج اميتها، وفقرها وبربريتها. في ظل هذه الظروف اصبحت كل العداوات الموجودة في المجتمع واضحة بشكل بارز، ومن بينها العداوة بين اليهودي وغير اليهودي. ومن هنا لا ينبغي لأحد ان يتصور أن المشكلة اليهودية وجدت في فراغ وبمعزل عمـا كان يجري في المجتمع السوفياتي. لقد كانت مغمورة في بنيان ذلك المجتمع ومرتبطة اوثق الأرتباط بتطوره وتحوله، في نموه وتقدمه، في تراجعه وتقدمه الجديد.

ان المشكلة التي نحن بصددها تشكل جزءاً عضوياً من المشهد الروسي الشامل ولذا فليس من السهل ايجاد طريق للتمعن في كل مظاهرها. وسأحاول الآن ان اتعرض لأثر تطور نظام الحزب الواحد على مصير اليهود.

كانت قضية استئثار الحزب بجميع القضايا غير واردة في عهد لينين. ولكن

نظام الحزب الواحد كان ينذر بالسوء من قبل . فقد كان النقاش الحر والمفتوح قائماً حتى عام ١٩٢٤ وامتد الى السنتين أو الثلاث التاليــات وكان اضطهاد الاحزاب الاخرى يسير بشكل تدريجي. ولندلل على ذلك بمثل الحزب الاشتراكي الصهيوني « بوالي صهيون » Poaley Zion ، الذي لم يقم بصورة شرعية حتى عام ١٩٢٥ أو ١٩٢٦ . وبالرغم من معارضة البلاشفة للصهيونية فان الاضطهاد الشامل للرأي الصهيوني لم يكن ضمن برنامجهم . وسبق لي ان ناقشت في كتبي . عن ستالين وتروتسكي العملية التي نتجت من الاختفاء التدريجي لكل الاحزاب السياسية . هنا استطيع ان اضيف ، ان هذه العملية قادت اوتوماتيكياً ومنطقياً الى تأسيس نظام الحزب الواحد بين اليهود أيضاً. لقد قمعت كل الاحزاب اليهودية «البوند» ، « بوالي صهيون » وتجمعات صهيونية اخرى . ويمكن ان تكون الصهيونية قد اعتبرت بنظر الثورة مغايرة ايديولوجيا أو انها غير مرغوب فيها على الاقـل ، ويجد هذا الامر ، إلى حد ما ، مبرراً كبيراً له . فالصهيونية لم تضع كل امالها على الاشتراكية والتضامن الاممي وانما وضعت امالها على تكوين دولة يهودية مستقلة ، فلم تهدف إلى خلق مستقبل افضل لجميع الشعوب السوفياتية في الاتحاد السوفياتي بل اندفعت إلى تهجير جماعة منظمة من الاتحاد السوفياتي . وباختصار ، فان الصهيونية ادارت ظهرها للثورة أو انها عمدت ، في احسن الاحوال إلى تجاهلها . غير انه لم يكن هناك سبب موضوعي لاعتبار الصهيونية عقيدة خطرة ومخربة . أن الحجة القائلة بان الصهيونية تهدد الثورة الروسية زائفة وسخيفة بالنظر الى ضعف وعجز التجمعات اليهودية في روسيا بكاملها. والحقيقة انه لا مكان لاي هرطقة أو تعدد في النظرات أو التيارات السياسية في ظل نظام الحزب الوطني التوتاليتاري . وكما يقول المثل اليهودي القـــديم : « كما تجري الامور بين المسيحيين كذلك علينا ان تجري بين اليهود » .

ومنذ ان سمح بوجود حزب واحد ووجهة نظر واحـدة لغير اليهود اجيز كذلك لوجهة نظر واحدة فقط أن تسود المجتمع اليهودي . ومما يجدر ذكره انه لم يكن أكثر المتعصبين والمؤيدين لقمع الاحزاب اليهودية من الروس وانما

كانوا من الشيوعيين اليهود، الجناح اليهودي من الحزب الشيوعي، (يفسكتسيا) (Yevsektsia) . وكنت في روسيا في وقت كانت فيه هذه المشاكل تناقش بحرارة وشاهدت مراراً كيف يتجاهل البلاشفة الروس ، ومن بينهم مخائيل كالنين Kalinin ، رئيس الدولة ، مع الرفاق اليهود محاولين ان يخففوا من عداوتهم الشديدة تجاه الفكرة اليهودية وتجاه بقايا البوند وحتى تجاه رجال الدين اليهود . لكن الشيوعيين اليهود شعروا بان عليهم ان يكونوا أكثر تمسكاً بعقيدتهم واصالة وتصميماً من زملائهم الروس . ونحن في العادة نتشدد مع من تختلف معهم ، في بيئتنا ، بدرجة أكثر من خصومنا البعيدين عنا . وبنفس الدلالة يمكن ان نتذكر ان جورجيان دجوكاشفيلي Georgian Djugashvili وابناء بلدته اظهروا حماساً وغضباً كبيرين في اضطهاد « القومية المحلية » في تفلس .

وواكب نظام الحزب الواحد تطور وتبلور الستالينية . ان سنوات العزلة ، وخيبة الامل من تلقي العون من الخارج ، وانهزام الشيوعية في اوروبا — كل هذه قد مهدت لمذهب ستالين في بناء الاشتراكية في بلد واحد . كان رد فعل البلاشفة على عزلة روسيا ان سلكوا ايديولوجية العزلة . فقد صنعوا من الحاجة فضيلة ، فلأنهم قُطِعوا عن العالم ، قاموا بمقاطعة العالم.

ونحن نعرف الان إلى أي مدى قد تخلى البلاشفة عن تقاليدهم الاممية عندما ساروا في طريق بناء الاشتراكية في البلد الواحد الذي اقامه ستالين . وعلى نحو ثابت تتسلل نزعة اللاسامية في روسيا ، كما في الغرب ، على السطح وفي اوقات ردود الفعل وتتغذى وتنمو على الانفعالات القومية والكراهية . ولم ينفر ستالين الذي لم يكن ارضاؤه صعباً من استقلال الاتجاهات المعادية لليهودية في صراعاته مع المعارضة . وقد حرك المحرضون الستالينيون في البداية ، وبشكل مكتوم ، عن طريق التلميحات الغامضة والاشارات الضمنية ، حركوا الرأي المعادي للسامية وقربوه من السطح ، حتى زمن التطهيرات الكبري حيث بلغ

اوجه الاول . وبلغت المسحة الباطنية المعادية للسامية من الشناعة في شكلها هذا حداً دفع بتروتسكي ، وهو الذي كان متحفظاً تجاه الموضوع، الى الخروج عن طوره ، فكتب الى بوخارين في مارس ١٩٢٦ رسالة يقول فيها : « هل صحيح وهل من الممكن ان يجري تحريض في حزبنا ، في موسكو ، وفي خلايا العمال، ضد السامية ودون ان تفرض العقوبات»؟ ولم يتسلم رداً على سؤال ناقم ومشابه لهذا طرح في اجتماع المكتب السياسي — كان هنـــاك بعض الارتباك ونوع من اللامبالاة . ان بروز مكانة اليهود بـــين قادة المعارضة كان امراً حقيقياً . وصورهم الموظفون المخلصون لستالين بانهم « امميون بلا جـــذور وطنية » . وبما انهم ليسوا من ابنـــاء روسيا الام فمن الطبيعي ان لا يكترثوا للاشتراكية في بلد واحد ، بلد الاسلاف . ان هـــذا النفاق بلغ حـــداً لم تعد فيه كلمة يهودي تلفظ اطلاقاً . ولكن أخذ بعين الاعتبـــار شجب مواقـــف اولئك الاممين الذين لا جذور وطنية لهم .

ومن جهة أخرى كان هنالك الكثير من اليهود في الادارة الستالينية ايضاً . فقد كان كاجانوفيتش Kaganovich اليهودي على رأس النظام الجماعي القسري في اوكرانيا الذي كان ينفذ بأكثر الطرق وحشية . وهنـــا ، يتكشف المأزق المأساوي الذي وقع به اليهود . فقد اضطهدوا في المـــدن ، لكونهم امميين بلا جذور وطنية ومعادين لتقدم الاشتراكية في روسيا . وكانوا مكروهين من قبل الفلاحين في الريف الذين رأوا في اليهودي البلشفي كاجانوفتيش معذبهم الاكبر . والى جانب هذه التناقضات، اضيفت تناقضات أخرى شائكة . فقد بقي التاجر الصغير واليهودى الذى يعمل بالمضاربة واليهودى الوسيط ، يهيمون على وجوههم في هذه التغييرات الهائلة ، وبقي اليهودى يثـــير الاشمئزاز في نظر السكان الروس . ومن ناحية أخرى كان يوجد اليهود من اساتذة الجامعات والآخرون من الاطباء العظام ممن كانوا يعلمون جيلاً من المثقفين ويشاركون في تطوير روسيا وتحضيرها الى حد كبير . كل هـــذا يشير الى ان التناقضات الكامنة في

المجتمع السوفياتي المتحول عمدت الى التـأثير في اليهود بصورة اكثر حـــدة وقسوة ومما كان يمكن لها ان تؤثر في أي جماعة قومية او عنصرية في الاتحاد السوفياتي .

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية . وبالطبع كان اليهود خلال فترة التسوية والمعاهدة القصيرة بين هتلر وستالين في موقـــع تطلق عليهم النيران من كل جانب . فلذا اصبـــح وضعهم غير مرضٍ اطلاقـاً . وكان ذلك قد تجسد في استقالة وزير الخارجية مكسيم ليتفينوف M. Litvinov واحلال فياشلاف مولوتوف الروسي العظيم مكانه . كيف يمكن لليتفينوف اليهودي ان يوقـــع معاهدة دولية مع هتلر او ريبنتورب Ribbentrop ؟ ان هذه المهمة تتطلب رجلاً آرياً بحتاً . فثمة ما يشبه التلوث العرقي كان ينبعث من المانيا الى روسيا. وفي غضون ذلك ارسل ستالين ومولوتوف رسالة الى هتلر حول الصداقـــة الروسية ـ الالمانية « المعززة بالدماء » وهي الايام التي اعلن فيهـــا ستالين انه كان يحرر « اخوانه في الدم »ـ الاوكرانيين ـ من الاضطهاد البولندي. ان مثل هذه العبارات العنصرية قد « اغنت » اللهجة الستالينية . وسرعان مـــا استعيض عنها بلغة روسية مغالية في قوميتها ، شديدة التعصب . ثم جاء الحادي والعشرون من حزيران عام ١٩٤١ واصبح نصير اللاسامية هو العـــدو اللدود لروسيا السوفياتية مرة أخرى .

وأخذت الاجواء المتوترة في المجتمع السوفيـــاتي تبدو حادة بسبب التقلبات التي مرت بهاروسيا قبل الحرب وبسبب جرائم نظام التجميع القسري ومأساة التطهيرات الكبرى وتهجير الجموع الغفيرة الى معسكرات الاعتقال بحيث تراءى البنيان الكلي ـ الاخلاقي والاقتصادي والسياسي ـ في بدايـــة الحرب وكأنه على شفير الهاوية .واستُقبل هتلر وجيوشه بالغبطة والمرح من قبل السكان في اوكرانيا واستمر هذا الى ان اظهر النازيون للاوكرانيين ماهيتهم الشريرة الحقيقية. وسرعان ما توصل الاكرانيـــون الى نتيجة مرة خلصوا منها الى ان

ستالين في اسوأ احواله يبقى مفضلاً على هتلر . ومهما يكن من أمر ، فقد جلب الغزو النازي لاوكرانيا وغرب روسيا موجة جديدة وقوية من العداء للسامية. فقد بقيت الكراهية القديمة تغلي تحت السطح فهي تسكن وتخمد ولكنها لا تنطفىء ابداً ؛ وخشي ستالين بدوره ، وكذلك حكومته ، من انه يمكن ان ينظر للحرب ضد النازيين – من قبل الاوكرانيين والروس – على انها حرب تخاض من أجل الدفاع عن اليهود . وكانت النداءات الحادة التي يبثها الراديو النازي والدعاية النازية وكذلك الكراسات والدعايات تعلن، بلا هوادة، للسكان في روسيا « ان هذه مكيدة يهودية ! انكم تخوضون الحرب لمصلحة اليهود ! » وغالباً ما بدت هذه الحجة المغلوطة مقبولة لدى اعداد كبيرة من الروس والاوكرانيين .

كان ستالين تواقاً لإبطال مفعول هذه الدعاية ، وبدأ بتنفيذ ذلك بطريقته الملتوية والماكرة المعروف بها . فبدلا من التصدي لها بصراحة واظهار مدى غوغائيتها فقد حاول ان يحتال بالسر على الموضوع الرهيب ويتغاضى عنه كلياً . فعلى امتداد الحرب العالمية الثانية نادراً ما كتبت الصحف الروسية عن مصير اليهود في ظل الحكم النازي وقلما ذكرت مذابح اوشويتز وماجدانك Auschwitz Majdanek الشهيرة . اما الجموع الغفيرة من المحاربين في الاتحاد السوفياتي فنادراً ما اعطيت نبذة عن ابادة اليهود ، وان حدث ذلك فانما يتم بطريقة عرضية ومختصرة قدر الامكان. لقد كان ستالين – وهو بطبعه لا يثق بشعبه، لا بل يزدريه اقل اندفاعاً منه في أي وقت مضى نحو العمل على رفع روحهم المعنوية . وكانت دعاوته في شهور الهزيمة تدار بطريقة غير متقنة وبدت عديمة الجدوى . فقد سببت الفوضى الحاصلة ، أحياناً ، نتائج مفجعة لليهود كان من الممكن تفاديها . ولنعطي مثلاً على ذلك : عندما عرضت

الحكومة السوفياتية عام ١٩٤٢ اجلاء يهود مدينة تاغنروج(Taganrog)-وهي مدينة صناعية ممتدة على بحر آزوف - قبل زحف الجيوش النازية اليها رفض يهود المدينة ان يتحركوا ، إذ لم يصدقوا أن الامــة الالمانية ، التي انجبت جوته وبيتهوفن ، امــة الشعراء والمفكرين ، امة ماركس وانجلز ، يمكن ان تكون مسؤولة عن هذه الجرائم تجاه اليهود ، كما تخـبرهم السلطات السوفياتية بذلك الان . لم يصدق اليهود دعاية ستالين حتى في الاوقات التي كانت فيهـا تلك الدعاية صادقة . لقد محقوا جميعاً في ظل الاحتلال الالماني ، أما الذي جلوا عن المدينة فقد بقوا احياء .

وعلينا ان نتذكر انه بالرغم من كل الجرائم التي ارتكبها ستالين فان هو نفسه الذي أمر بتقديم المساعدة لمليونين ونصف المليون من اليهود في المناطق المحتلة في روسيا وذلك بنقلهم إلى المناطق الداخلية من البلاد، الأمر الذي انقذهم من معسكرات الاعتقال النازية ومن غرف الغاز . وهذه حقيقة يميل القومي اليهودي والصحافة الصهيونية إلى تناسيها . لقد وجد هؤلاء اليهود انفسهم في موقف غريب ، فقد اصبحوا بعد اخلائهم السريع وانتقالهم إلى كازخستان واوزبكستان وإلى جمهوريات وسط آسيا ، أصبحوا في حالة ارتباك ويأس وألقى بهم في اوساط غير مألوفة لديهم وهكذا اقتلعوا من جذورهم مرة اخرى . وكان عليهم ان يكسبوا قوتهم وسط فقر مدقع ونقصان في الطعام ، وسط مجاعة حقيقية ، وبذلك أصبحوا ، من جديد بارزين في الاسواق السوداء ، لقد عادوا سماسرة . (روى لي هذه القصة العديد من اصدقائي البولنديين الذين ابعــدوا عن هذه المناطق من روسيا) . فليس من العدالة ان يلام اليهود الذين أخلوا بلادهم . فهم ليسوا بمزارعين أو فلاحين حتى يمكنهم ان يظفروا بشيء من الارض حتى ولو في اسوأ الظروف . ولم يكن معظمهم من العمال الصناعيين المهرة بل كان جلهم ممن لا يستفاد منه في الجيش لكبر سنه . ان شيئاً ما من عقلية التاجر كان يلازمهم -وتزايد هذا الآن بسبب الاضطراب المطلق - وهو الذى يختــزن القليل من الشاى والسكر وبعض أكياس القمح

والبطاطس ويبيعهـا باحسن سعر يمكنه الحصول عليه . أما جميع الذين حول السكان اليهود من الشغيلة الروس فقد كانوا يموتون جوعاً . وقد اعطى هذا من جديد ، دافعاً لموجة العداء للسامية . ومع ذلك ، فقد انقذ هؤلاء المليونان أو الثلاثة من اليهود الذين يشكلون الاغلبية العظمى من الطوائف اليهودية في روسيا ، من المذابح النازيــة . وكانت اعصاب الامة ، في اعقاب الحرب متوترة من جديد . فالى جانب الفوضى والانهـاك والضجر اضيفت عام ١٩٤٦ مصيبة اخرى ، فقـد اصيب موسم الحصاد بكارثة لم تشهد مثلها روسيا منـذ نصف قرن . كان العجز منتشراً ودب اليأس فى كل مكان عندما أصبح الناس يحصون موتاهم ! لقد خسروا عشرين مليون رجل فى القتال ! جاء ادراك هذه الخسارة الفادحة بطيئاً فى البدء بيد انه سرعان ما اهتزت الأمة بقـوة لا تحتمل . لم يعـد احد يبصر رجـلا فى المزارع أو الحقول الروسية فلم يكن يوجـد سوى النساء والمسنين والاطفال يفلحون الارض وينتجون محاصيل قليلة لا تكاد تكفى لسد حاجة الامة من الطعام . ورفعت جميع القيود على تشغيل الاحداث وكانت الاوامر اليومية تنصب على العمل ومضاعفة العمل .

كانت العداوات القديمة والجديدة حادة ومؤلمة . وبدأ الصراع السرى مرة أخرى بين تيارين عظيمين في طريقة التفكير وفي الايديولوجية في المجتمع السوفياتي ، انه الصراع بين القوميـة والاممية . واذا لم يفطن المرء دوماً الى حقيقـة ان هـذا الصراع يشكل الظاهرة الاساسية في المجتمـع السوفيـاتي ، فسوف يفقد بذلك الشرط الاساسي لفهم تاريخ مرحلة ستالين والاحداث التي تلتها والموقـع الذى تشغله المشكلة اليهوديـة في الحياة السوفياتيـة . فهنالك القوميون والمعـادون للسامية بين الفلاحـين والعمال والطبقة البروقراطية والمثقفين . ويتواجد الامميون وبالتالي اعـداء اللاساميين في

جميع تلك الشرائح من المجتمع ايضاً .

وعلينا الآن ان ننقل اهتمامنا الى فصل من سياسة ستالين الخارجية التي ربما يبدو انها تتناقض لا مع موقفه الخاص من اليهود فحسب بل مع النظرة التقليدية البلشفية للصهيونية .

عندما كانت اسرائيل تشكل نفسها كدولة عام ١٩٤٨ شاهدنا حالة مثيرة تلاقى فيها الروس والامريكيون في موقعها — وهما الخصمان اللدودان — وقد عملا معاً على طرد الانجليز من الشرق الاوسط ، وقاما معاً بدور القابلة في عملية ولادة اسرائيل .

ومهما كانت توقعات ستالين ، فان اسرائيل تبقى مدينة له بوجودها المستقل حتى وان بدا ذلك مثيراً للدهشة . وجاء تسليح الهاغانا بصورة رئيسية من مصانع الاسلحة في تشيكوسلافاكيا الستالينية . ان المساعدة والعون المادي الفعال الذي كان يعطيه ستالين لليهود قد بدا بنظر السياسيين الغربيين امراً شريراً ، أثار الحقد وحرك قدراً من الكراهية نحو اليهود .

ثم جاءت الحرب الباردة . لقد وجدت اسرائيل نفسها متخلخلة في مؤسساتها ، ومحاطة بعالم عربي معاد ، متخوفة من مستقبلها ومعتمدة على المساعدات الاقتصادية لليهود الاميركيين مما دفعها للتحالف فعلاً مع الولايات المتحدة . وبالطبع فهذا لم يكن ليلقى إلا العداء من روسيا . اما اليهود الروس فقد استقبلوا جولدا مائير ، اول سفيرة لدولة اسرائيل في موسكو ، بالابتهاج واعلان التضامن مع اسرائيل . ورأى ستالين الذي ربما كان يراقب هذا المشهد غير المألوف من نافذة قصر الكرملين رأى في اليهود عنصر غير ثابت ، فاسرائيل قابلته بالجحود والنكران (وهذا صحيح الى حد ما) اما يهود الاتحاد السوفياتي

فليسوا أهلاً للثقة. وهكذا بدأ ستالين يضطهد اليهود ويتهمهم بشتى التهم وذلك تحسباً لامكانية نشوب صراع مع الولايات المتحـــدة أو من اندلاع الحرب بين روسيا والغرب فاتهمهم بأنهم شعب بلا وطن وبلا جذور وطنيـــة . وكان يقال ان لكل يهودي اقرباء في الغرب وفي امريكا في الغالب . فكيف يمكن الوثوق باليهودي كمواطن روسي يحب بلاده حقيقة ؟ وهل يمكن التأكد بصورة مطلقة، من ان ولاءه في الاحوال الطارئة سيكون للدولة السوفياتية ؟ مثل هذه كانت وجهة النظر الستالينية ، بدون شك .

وعلى المرء ان يسلم ، اذا ما قـام بتحليل موضوعي ومتزن لكامل الموقف كما تجلى في جو الحرب الباردة، بان هذا النوع من الحجج، وهو غريب علي، لا يخلو اطلاقاً من المنطق . لقد كان ليهود روسيا ولع بأمريكا وباقربائهم فيها . واذا استطاع المرء ان يتخيل ، مثلاً ، الجيوش الاميركية تزحـــف على روسيا ، كما فعلت الجيوش الالمانية ، فلربما ستلقى هذه الجيوش الكثير من التعاطف اليهودي وبعضاً من المتعاونين بين اليهود المحليين . وليس هناك من حاجة لانكار هـــذا الأمر . ان ما غاب عن ذهن ستالين هو السؤال الاساسي التالي : كيف يمكن ان يوجد في روسيا ، بعد مضي سنوات عديدة على الثورة ، من يشك في ولائهم للنظام السوفياتي ؟ واذا كانوا فعلاً غير اهل الثقة إلا يتوجب ، عندئذ ، توجيه اللوم الى الحكومة السوفياتية بدلاً من اليهود؟فلو سأل ستالين نفسه هذا السؤال فهل سيعترف بان حكمه وتحريفه للثورة هما الملومين ؟

مهما يكن من امر ، فقد كانت هذه مجموعة معقدة ومتشابكة من المسؤوليات والريبة والخوف. فقد تحولت المبادرات السياسية على يد ستالين، بصرف النظر عن نوعها، إلى أقصى اشكال العبث والوحشية والتهور . وهكذا فقد جوبه العالم بمشهد خسيس عندما خرج اليه ستالين بما يسمى « مؤامرة الاطباء » Doctors' Plot. فلقد أعلن في الثالث من يناير عام ١٩٥٣ عن اعتقال مفاجىء لتسعة من الاطباء الخصوصيين في قصر الكرملين واودعوا السجن بتهمة وضع السم لعدد من المرضى

اللاهمين وكذلك للتخطيط لمزيد من الاغتيالات والتآمر على حياة المارشالات والجنرالات السوفيات من اجل تقويض دفاع البلد وكذلك بتهمة العمل مع المخابرات الاميركية والبريطانية والمنظمة اليهودية العالمية . كانت هناك تلميحات غامضة حول افشاءات أخرى وشبكة الوقوع وعن تشعب في المؤامرات ومآثم أخرى ارتكبها المتآمرون . ان الحملة التي لم تكبح ضد اليهود قد ادت ، حسب بعض الروايات ، الى اجلاء كل اليهود عن اماكن اقامتهم واجبارهم على الاقامة في مكان ما في أقصى الشرق أو في بيروبيد جان .

لقد لقيت هذه الخطة الفشل شأنها بذلك شأن العديد من الخطط الدنيئة والضارة التي دبرها ستالين في السنوات الاخيرة من حياته ، واخفقت في لحظة وفاته . ثم بدأت عملية نقض الستالينية . كان أول تحرك قامت به الحكومة الجديدة التي تولى رئاستها جورجي مالنكوف الذي كان يشغل منصب السكرتير الأول للحزب ايضاً ان اعلنت بطلان ما يسمى « بمؤامرة الاطباء » والغائها .

ودخل الاتحاد السوفياتي بموت ستالين طوراً جديداً وأصبح الصراع الجهيد والمستمر بين القومية والامية واضحاً جلياً من جديد . وتبع موت ستالين ردة فعل معادية للخط القومي الشوفيني المعادي للسامية واندفاع سريع تجاه الاممية . ولكن الأممية لم تحرز نصرها النهائي والحاسم ضد القومية وكان هناك ولسنوات عديدة توازن غير ثابت بين التيارين. فقد احدث تأرجح كفة الميزان ، تارة هنا وتارة هناك ، كل التعرجات والتقلبات التي شهدها الاتحاد السوفياتي . وتميزت الفترة التي حكم فيها خروتشيف بعد موت ستالين بالغموض في معالجة المشكلة اليهودية . وولت لا سامية السنوات الاخيرة من حكم ستالين ورفعت شعارات مساواة اليهود بالمواطنين الآخرين . ولكن لا يزال هناك ، وطبقاً لجميع الحسابات ، تيار

قوي ، معـــاد للسامية . فالمعالجة الحقيقية والصريحة للمشكلة اليهودية لم تبد للعيان بعد . ولا نستطيـع ان نأمل بذلك إلى أن تعرض جميع المشاكل الروسية في الماضي والحاضر ، الفنيـــة والمفجعة ، المدهشة والمثيرة ، في امتحان حر وصريح يجريه الحكام السوفيـــات والمواطنون السوفيات والشيوعيون بصورة عامة .

مناخ اسرائيل الروحي

من هو الاسرائيلي ومن هو اليهودي ؟ كثيراً ما يناقش هذا السؤال في اسرائيل بسبب الاهمية الواضحة لعلاقة اسرائيل الفتية بيهود العالم . فهناك العديد من الصهيونيين ممن يؤمنون بعودة اليهود من البلاد في المنفى . ويعتبر كل يهودي خارج اسرائيل في نظر هؤلاء ، مبعداً ، وعليه واجبات تجاه اسرائيل ، وواجبه الكلي أن يصبح مواطناً اسرائيلياً. ومن جهة اخرى ، لا يشعر الشباب الأسرائيلي ، وخاصة الصابرا ، « بالانتماء الى اليهودية العالمية » ، وبالتالي فهم لا يرون ان « اليهودية العالمية » ، تنتمي الى اسرائيل . ويغالي بعضهم ليقول انه اسرائيلي وليس يهودياً .

ان الفارق بينهما ليس زائفاً تماماً. فهنالك مسحة غير يهودية بشأن اسرائيل، من عمال يكافحون الصحراء ويحولون رقعها بساتين عنب وزيتون ، ومن جنود يراقبون العرب باستمرار عبر الحدود ، وفي ذلك التحسس الشعبي لوجود الدولة وللعنف الذي يبديه الشعب للدفاع عن دولته في وجه العالم الخارجي .

ولقد ُيوجّه الى الزائر لاسرائيل سؤال كهذا :« الا تشعر اننا نحن اليهود

تملك جذوراً هنا ؟ ان هذه الكلمات « جذور » « بلا جذور » تتردد بكثرة اثناء الحديث . لقد دفعت الاقامة في معسكرات الاعتقال النازية ، والمعاناة من العداء البولندي القديم للسامية والوقوع ضحيــة للحرس الحديدي الروماني كل هذه دفعت اليهودي كي يشعر بأنه في وطنه وفي مأمن . لذا فهو يعبر عن رضاه وارتياحه وزهوه .

ان كل هـــذا الصراخ المتناغم من التصوف القومي يصم الآذان فهو لا يخلو من عنصرية الشعب المختار القديمة والتي لا تنسجم مع عنصر العقلانية الباردة في الطبع اليهودي . غير ان اسرائيل ، بعـــد كل حساب ، هي بلد زوهار Zohar ،الانجيل الثاني للغيبيات في العالم ،وهي مقر رجال الكابالاه Kabbalists الذين نسجوا رؤاهم على الصخور الزاهية المجاورة لصفد ... ومهما يكن من أمر فهناك شيء مزعج في حدة الشعور القومي الذي ينضح به حديث الاسرائيليين على اختلاف مراكزهم ومسؤولياتهم .

ويحدثني بن غوريون بمرارة عن اليهود غير الصهيونيين فيقول : « انهم بلا جذور ، اميون بلا جذور وطنية – لا يمكن ان يوجد ما هو اسوأ من هذا » ، فقلت له انه يتكلم كرجل ستاليني في دعايته عندما يتحدث عن اليهود بصورة عامة . فلوح بيديه محتجاً :

« كلا ، كلا .. انني كرئيس للوزراء في هذا البلد كنت اؤكد دوماً أن على الاسرائيين ان يشعروا بأنهم مواطنو العالم كي يكونوا ذوي قيمة كاملة لدولتهم . انني لا اندد « بالاممية التي لا تمتلك جذوراً وطنية » بالطريقة التي اتبعوها في موسكو » .

ان هذا بالطبع هو فكر ثان لبن غوريون فهـــو يدين ، بشكل غريزي ، ويشجب كل اولئك اليهود غـــير الصهاينة الذين لا تشكل فكرة « الانتماء الى اليهودية » فكرة مركزية أو شعوراً متسلطاً لديهم . ولكن عندما يشار الى بعض

التوافق بين كلماته مع الدعاية الستالينية (في فترة مؤامرة الاطباء) فإن وجهه يتورد مرتبكاً ويصحح نفسه .

في اسرائيل ، شكل أقدم شعب في العالم أحدث دولة قومية وهذا الشعب مندفع ، بتعويض ما فاته من وقت . ان المثـــل الاعلى لجميع اليهود هنا انما يتجلى في إنماء هيكل قومي وقائي ومتين مما يقتضي ضمناً ، التخلص من حياة المنفى ، الذكريات ، العادات ، الاذواق وزوائح المنفى — أي التحرر من المنفى . ويقتضي ذلك تناسي الاجواء ، المناظر الطبيعية الريفية والالحان ولغات عدد كبير من البلدان مثل بولندا ، روسيـا ، لتوانيا ، النمسا ، مراكش تركيا والعراق . يا لها من عملية ممتـــدة ومتعددة الجوانب تتمثل في اقتـــلاع نفسي يلي خطوات مأساوية من الاخلاء المادي . في الحقيقة هناك أغلبية ساحقة من الجيل الحاضر في اسرائيل لم تضرب جذوراً لها في اسرائيل ولن تستطيـع ذلك . ان اسرائيل هي دولة الشخص المشرد ولهذا يكثر الحديث عندهم حولى « الجذور الضاربة » .

انهم يتوقون للابتعاد عن ماضيهم ولإزالة إمارات المهانة ووصمات العار من أذهانهم وكذلك لتناسي جميـع المحاولات التي قامـوا بها لمجابهة ضغائن الآخرين الموروثة . بل انهم يتوقون للتخلص حتى من جزء من عقلهم الخاص . يشعر بعض الاسرائيليين مثلاً ، بخجل عصابي من اللغة اليديشية ، لغة اشعارهم في الحضانة ولغة قصص التوراة والأدب الغني المدهش الذي نما في شرق اوروبا قبل النكبة اليهودية . واذا كنت على ظهر سفينة أو في تل ابيب وسألت رجـــلا عن اللغة التي يستوجب مخاطبته بها ، فستكون الالمانية هي جوابه على الأغلب ونادراً اليديشية . ولكن في اللحظة التي يتفوه فيهـــا الغريب ، يتضح انه يتحدث اليديشية — فهو على الأغلب يجهل اللغة الالمانية الاصلية — ولكنه لا يريـــد الاعتراف بذلك . فاليديشية « ورقة توت » لغوية وهو مصمم على نبذها .

ان هذا الموقف من اليديشية هو من سمات الصهيونية حتى قبل مجيء هتلر بزمن وقد هدفت الصهيونية منذ البداية الى إحياء اللغة العبرية . ويقوم قدر من التعالي حولها كما لو جرت محـــاولة من قبل اليونانيين أو الايطاليين الرجوع الى اليونانية أو اللاتينية الكلاسيكية والتخلي عن لغاتهـــم الحديثة . لقد رأت الصهيونية دوماً ان اليهودية ما هي إلا امير الزمان الذي حكم عليه بالعيش في فقر مدقع لسنوات عديدة ، ولكن هذا الامـــير يعود الآن الى قصره الملكي ويخلع عنه الاسمـــال البالية الكئيبة التي ارتداها في الحفلة التنكريـــة ويرتدي الثياب الملكية المذهبة الارجوانية . وهكذا تتخلى اليهودية على عتبة اسرائيل، عن الاسمال اليديشية البالية في سبيل ذهب وارجوان العبرية .

يسألني بن غوريون بلهجة توحي بالثقة بنفسه : متى ستبـدأ الكتابة باللغة العبرية بدلا من الانجليزية ؟ انه يفترض جدلا بأي أي كاتب يهودي المـولد عليه واجب اخلاقي تجاه أدب اسرائيل العبري .

ان هذا التأكيد الذاتي الاسرائيلي — العبري قد قصد منه صهر كل العناصر المتباينة في اسرائيل ضمن أمـة واحدة واعطاء هذه الامة وحدة روحيـــة وثقافية . ومع ذلك فان وراء هذا التأكيد الذاتي حنين اليهود الطبيعي لبلاد وثقافات شهدوها في طفولتهم وشبابهم ، ذلك الحنين الذي يعـــبر عن نفسه احياناً بضروب من النبـــالة القصوى . ويكاد المرء ان يعرف قصة الحنين الى الوطن من خلال واجهات المكتبات الاسرائيلية — فتكاد تكون هذه الواجهات شبيهة بالنواح الفكري على النفس اليهودية . وتشكل المكتبات عنصراً شديـد الاهمية في الحياة الاسرائيلية لأن اليهود مكثوا هنا وعرفوا « بشعب الكتاب » (Am Hassfer) . ان الكتاب ضرورة أولية هنا ، ويبدو ان عدد المكتبات ومكتبات الاستعارة في تل ابيب وفي حيفا أو في القدس يفوق عدد الحوانيت ودكاكين الخضرة . وهناك مكتبات غنية في المستعمرات الزراعية قلما يوجد

لها مثيل في الارياف الاخرى .

ليست كتب الجريمة أو الجنس أو المسلسلات الهزلية أو الكتب الرائجة الرخيصة الثمن هي التي تملأ الرفوف بل تملؤها الكتب العظيمة والجادة للشعراء والمفكرين واصحاب الرؤى الاجتماعية في جميع الأمم وهي موجودة هنا بترجمات عبرية وبلغاتها الاصلية .كانت كل مجموعة من المهاجرين ، على ما يبدو ، حريصة على نقل الرعشات الفنية والمثيرات الادبية لأيام طفولتها وشبابها الى الاطفال الذين يكبرون في اسرائيل .

وكتب هنريك هاين مرة يقول انه عندما كان اليهود يرحلون من أراضيهم كانوا يتركون خلفهم كل ثرواتهم عدا ملكية واحدة وهي الكتاب (التوراة) . واستمر « ذلك الشبح من الشعب » يتولى طيلة العديد من القرون حماية التوراة محتفظاً بها لسائر البشرية .

ان دولة اسرائيل هي بالاصل من عمل يهود اوروبا الشرقيين وخاصة الروس والبولنديين واللتوانيين. وجاء من بين صفوف هؤلاء معظم أصحاب الرؤى ماعدا هرتزل ونوردو وكذلك جاء من بينهم معظم القادة الاوائل والناطقين الرسميين ورجال الدولة والرواد ، وعندما أعلن عن قيام الدولة اليهودية في عام ١٩٤٨ كان اليهود الذين هم من اصل روسي وبولندي يشكلون حوالي نصف سكانها .

كان التيار القديم للحياة اليهودية يجري على أشده في الاحياء اليهودية من اوروبا الشرقية حيث حلم اليهود بأحلام صهيون بكثافة . وعندما كانوا يحيي بعضهم بعضاً في أعياد الفصح كانت العبارة العامة هي « عامنا القادم في القدس » . تبدو مخالفة للطريقة التي نسمعها بها في المنازل اليهودية في اوروبا الغربية أو في امريكا. ان العمليات التي اندمج بموجبها اليهود الفرنسيون ،

البريطانيون الطليان والالمان بمواطنيهم المسيحيين قبل بزوغ النازيـــة لم تحرز نجاحاً في روسيا وبولندا . فقد عاش اليهود بأعداد كبيرة ومكتظة وكانت لهم طريقتهم الخاصة والمتجانسة في الحياة ، أما القوى الممتصة للحضارات السلافية فقد كانت من الضعف بحيث لم تقو على سحبهم وادماجهم . وترتب على ذلك ان اصبحت اوروبا الشرقية موطن اليهودية المفضل (فلذا لم يكن اعتباطاً تسمية فيلنا « بقدس لتوانيا ») . فهل مما يثير الدهشة ان يقال ، على لسان احد اليهود من غرب اوروبا ، ان اسرائيل « مستعمرة روحية للاحياء اليهودية في اوروبـــا الشرقية ؟

علاوة على ذلك فقد كان الحي اليهودي في شرق اوروبـا منقسماً على نفسه بشدة . وكان في ثورة على نفسه وعلى تقليده وعقيدته الشخصية وعلى العـالم الخارجي . وقد اتخذ التمرد شكلين متنافسين هما الصهيونية ، والاشتراكيـــة الماركسية الثورية .

وبينما كانت العلاقة بين الاشتراكية والليبرالية والصهيونية تقوم في الغرب على المحبة ، اتسمت هذه العلاقة بالمنافسة المريرة للوفـاء للجماهير لليهودية في شرق اوروبا . وغالباً ما يظهر انشقاق عميق بين اليهودي الصهيوني واليهودي المعادي للصهيونية . ولقد حث المعادون للصهيونية باقي اليهود على أن يثقوا ببيئتهم غير اليهودية وان يساعدوا « القوى التقدميـــة » في تلك البيئة كي تصبح صاحبة السيطرة ، وأملوا من ذلك ان تدافع هذه القوى عن اليهود بفعـالية وتناهض اللاسامية . لقد كانت حجة أجيال من اليهود اليساريين أن « الثورة الاجتماعية سوف تمنح الحرية والمساواة لليهود ، فلا حاجة اذن للخلاص الصهيوني المنتظر » . أما الصهيونيون فقد اسهبوا من جهة أخرى بالتحدث عن البغض العميق الذي يكنه غير اليهود لليهود ، وحثوا اليهود على أن لا يعتمدوا في مستقبلهم على أحد غير دولتهم هم . وقد احرزت الصهيونية في هذا الخلاف نصراً مروعاً لم يكن يخطر ببالها . كان على ستة ملايين من اليهود ان يلاقوا حتفهم في غرف الغازالتي

أقامها هتلر كي تظهر اسرائيل على وجه الحياة . ولكن ألم يكن من الأفضل ان لا تولد اسرائيل وان يبقى الملايين الستة من اليهود أحياء – ومع ذلك فمن يستطيع توجيه اللوم لاسرائيل أو الصهيونية على هذه النتيجة ؟

ان الصهيونية في اوروبا الشرقية كانت مطلقة العداء للثورية ، ومع ذلك فقد استنشقت هواء الثورة الروسية ، تلك الحركة الضخمة من الافكار الثورية التي سبقت وقوع الثورة البلشفية وبلغت أوجها في هذه الثورة، تلك التي تركت بصماتها الابدية على الصهيونية .

ان الشاب اليهودي في كييف ، أو ديسا ووارسو الذي إرتاب من الايديولوجيات الثورية الروسية – البولندية وتاق لزيارة الدولة اليهودية في فلسطين ، كان منوماً (بشكل عام) بهذه الايديولوجيات التي فر منها ، وهذا ما اكتشفه بعد وصوله الى فلسطين .

ويوجد في اسرائيل بعض التفاوت الذي يسترعي الانتباه في الثروة والفقر. فهناك بون شاسع بين أكواخ العبور التي يقطنها الفقراء وبين الفنادق المترفة والفيلات على جبل الكرمل . ولكن يوجد شعور بالخزي منتشر وذو خطورة بسبب هذا التفاوت، وهو مماثل للذي ظهر في روسيا ايام تولستوي وتشيكوف. ويوجد شعور بالمساواة يسود في اوساط الطبقة العاملة شبيه بذلك الذي ازدهر في روسيا السوفياتية قبل اجهاز الستالينية عليه . وتلتزم النقابات ، الى درجة ما ، بتحقيق سياسة المساواة في الأجور . فالتفاوت في الاجور بين العمال المهرة وغير المهرة وموظفي الدولة ضئيل نسبياً. ويتذمر الناس من ان نقص مدفوعات الحفز يعرقل التقدم الاقتصادي في اسرائيل .

يعتبر الكيبوتز ، وهو وحدة ريفية صغيرة ، نموذجاً للمساواة

(Egalitarianisn) الاسرائيلية ، وهو ايضاً من أهم مظاهر الصورة الفكرية والاخلاقية لاسرائيل . والكيبوتز سليل غير مباشر لفكرة الشعبين الروس او Narodniks [*] .

و بشر الشعبيون باشتراكيتهم الزراعية في النصف الثاني من القرن الماضي في وقت لم تكن فيه روسيا تمتلك صناعة حديثة : وجاء « أحباء صهيون » وهم رواد الصهيونية الحديثة من روسيا الى فلسطين قبل ان تكون يوتوبيا الشعبيين قد اضمحلت كلياً . وجاءت موجة الهجرة الثانية Alliyah بعد هزيمة الثورة الروسية التي حدثت عام ١٩٠٥ — ١٩٠٦ . وأوجد رجال هذه الموجة أعظم وأجمل المزارع الجماعية في الخليل وطبريا وتلال القدس على مقربة من المدينة ووصل الفوج التالي من المهاجرين بعد قيام الثورة البلشفية . واقام الاغنياء من اليهود الروس ، الذين عملت الهجرة على انقاذ بعض ثرواتهم في برلين أو باريس أو لندن أما الذين جاءوا الى فلسطين فلم يتمكنوا من انقاذ شيء غير حلمهم في الدولة اليهودية .

وشجعت حكومة لينين ، في ظل السياسة الاقتصادية الجديدة ، بعض المزارعين المثاليين ومثقفي الحزب على أن يشكلوا وحدات ريفية تجريبية مدعومة بمساعدات طوعية ، واعتُبرت تلك الوحدات « مختبرات المستقبل » وهي غير المزارع الجماعية في عهد ستالين . وكانت المزارع الجماعية في اسرائيل

---

*النارودنيك (اوالشعبية) : تياربورجوازي صغيرفلاحي في الحركة الثورية نشأت في الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر . وكان الشعبيون يسعون الى تصفية الاوتوقراطية بتسليم اراضي الملاكين العقاريين الى الفلاحين . واعتبروا أن القوة الثورية الرئيسية هم الفلاحون ورأوا في المشاعة الريفية جنين الاشتراكية . وقد ذهب الشعبيون الى القرية (الى الشعب) سعياً منهم لحث الفلاحين على النضال ضد الاوتوقراطية ولكنهم حسب رأي دويتشر لم يلقوا التأييد لدى الفلاحين. (راجع كتاب ثورة اوكتوبر في نصف قرن، ص٤٦ — تأليف : اسحق دويتشر، (ترجمة بيار عقل) (المترجم).

على غرار الوحدات الريفية الروسية الاولى قد شيدت بواسطة Kibbutzim الشبان والفتيات الذين تركوا منازلهم العائلية وانضموا الى المنظمات الاشتراكية الصهيونية مثــل هاشومر هاتزير Hashomer Hatzair وذلك لكي يزرعوا الحقول في مدن فلسطين وأراضيها بدلاً من ان يخوضوا صراعاً طبقياً .

وتعتبر الكيبوتز مؤسسة فريدة من نوعها من الناحية الاجتماعية وتعــود جذورها الى ما هو أبعد من الشعبية الروسية ويمكن ان توجد في برنامج عمل فوريية الفلاتستير Phalansteres وفي تجارب روبرت اوين التعاونيـــة وفي المشاريع المختلفة لاشتراكية العصر الكلاسيكي الخيالية . وكان مؤسسو الكيبوتز يأملون ، مثل الاشتراكيين الطوباويين ، في تحقيق الاشتراكية بالمثال الفردي لا عن طريق انقلاب ثوري منظم على المجتمع القائم . على أن القصور التي شيدها الاشتراكيون الطوباويون في الهواء سرعان ما انهارت بعد تشييدها . فقد ُبني الكيبوتز هنا ، بالمعنى الحرفي ، على الرمال ، غير أنه أظهر الكثير من الصلابة . وستحتفل أقدم مزرعه جماعية في اسرائيل قريباً بعيدها الخمسين ويوجد العديد من هذه المزارع التي تم تشييدها قبل عشرين أو ثلاثين سنة وحققت التقــدم والازدهار .

والذي لم يشاهد الكيبوتز سيصعب عليه تصور مدى الجــرأة في الفكرة وفي تنفيذها . وفي العادة يكون في الكيبوتز عدة مئات من الاعضاء يعيشون فى دور صغيرة وهي جميلة البناء والاثاث وتقع البيوت البيضاء في صفوف متقابلة وهي محاطة بفراش من الازهار وفيها قاعات الطعام والمكتبات والمدارس والمركز الطبي ومبان أخرى للاستخدام العام مع الورشات وسقف المزارع في أطراف المستعمرة . ان توزيع العمل بين اعضاء الكيبوتز هو أمر اختياري ، وينمو هذا شيئاً فشيئاً باتساع مع التقدم في التكنولوجيا الزراعية . وفي بعض المزارع الجماعية توجد مصانع احتياطية ذات حجم كبير ويعمل الاعضـــاء الذين هم دون سن الخمسين لمدة تسع ساعات يومياً وما فــوق ذلك يعملون أربع

ساعات . واذا أظهر العضو ميولاً فنيـــة أو علمية فان مجلس الوحدة الادارية (Commune) يمكن ان يقصر من مدة عمـــله في المزرعة أو يعطيه سنة للراحة بعد فترة من عمله .

وتتشابه المكافآت نوعياً وتوزع الأغذية والملابس والأثاث والمواد الطبية والدخان والكتب (حق اللوحات الفنية) من الصندوق المشـــترك – « لكل حسب حاجته » . ويحصـــل كل عضو على بضعة جنيهات كمصروف جيب . ويتوقف مستوى الحياة المعيشية في الكيبوتز على حجم الصندوق المشترك أي على الثروة المتجمعة عبر السنين وعلى انتاجية العمل الجاري وعلى الربح الذي تجنيه منظمات التسويق التي تبيع فوائض الانتاج للآخرين .

وقد امتدت القاعدة المشاعية بشكل جريء الى تعليم الاطفال الذين نشئوا في الكيبوتز ولكنهم يقيمون في حيهم الخاص ويمكثون مع والديهم بضع ساعات فقط في اوقات فراغهم في المساء . ولاحظت ان اعضاء الكيبوتز قد اعتادوا على التربية المشاعية للاطفال الى حد انهم يتحدثون عن جميع أبناء الكيبوتز بطريقة طبيعية وغير منحازة كما لو انهم يتكلمون عن ابنائهم .

وتعتبر الكيبوتز من بعض الوجـــوه ائتلافاً من المخـــيم الكشفي والدير البنديكتيني وتتمتع بميزة فقدان الانضباط القسري ويسر العلاقات الانسانيـــة وقيمتها الهادفة .

ويعيش في المزارع ما يقارب سبعون الفاً من السكان وهم لا يشكلون اكثر من ٥٪ من سكان اسرائيل ، غير ان نفوذهم يفوق عددهم . وتكمن جاذبيـــة الكيبوتز في فكرتها المثالية ويبدي العديد من سكان المدن رغبـــة في إرسال اطفالهم الى مدارس الكيبوتز التي تستخدم اساليب عصرية جداً في التعليم .

كانت أهمية الكيبوتز في ظل الانتداب البريطاني تفوق ما هي عليه الآن

بكثير . وكان عدد اليهود اقل بكثير في ذلك الحين ولم تكن هنالك اجهزة حكومية من جيش او بوليس أو نظام قضائي يهودي . وكان الكيبوتز بتنظيماتــه القوية ومعنوياته العالية يشكل نوعاً من دولة الظل اليهودية . ويوجد العديد من كبار الموظفين الحاضرين ومن الضباط ممــن جاءوا من الكيبوتز وبقيوا اعضاء في مجتمعهم الريفي . ويحاول البعض ان يجمع بين العمل في الدولة والعمل في الكيبوتز وهذا ممكن لصغر حجم الدولة وللصفة القبلية — الى حد ما — الــتي يتسم بها المجتمع الاسرائيلي .

ولا يزال الكيبوتز حتى الآن مركزاً للقوة الخلقية في اسرائيل ولكن منذ وقت غير قصير بدأت مراكز الكيبوتز تواجه الازمات ، فقد طغت مؤسسات الدولة عليها واغرقتها تدفقات المهاجرين الجدد .

ومنذ عام ١٩٤٨ ازداد عدد سكان اسرائيل بنسبة تفوق الضعف ولم يكن الوافدين الجدد بمثالية الذين سبقوهم في الهجرة ، فهــم من مخلفات معسكرات الاعتقال النازية ومن يهود اوروبا المنبوذين والمشردين ومنهــم من كان من اليهود الشرقيين . وتبدو مفاهيم رواد الصهيونية الأُولَ غريبة ومبهمة بالنسبة للعديد من المهاجرين الجــدد . وهم يفضلون دكان خردة او تبــغ في مكان ما من المدينة على كل معجزات الكيبوتز والمستوى المعاشي المرتفع — نسبياً — للمزارع الجماعية . وما يزال عشرات الآلاف من هؤلاء المهاجرين يعيشون على الاعانات في الاحياء الفقيرة وفي مخيمات العبور وهم يؤثرون الاستمرار في معيشتهم على الاعانات في اكواخهم القديمة عوضاً عن دفع ايجار المنزل الجديد وقــد عادت قلة منهم الى الهجرة من جديد الى تونس ومراكش فاقتصاد البــلاد لا يستطيع استيعابهم إلا بالتدريج وبمشقة وعبثاً يدعوهم الكيبوتز للالتحاق في صفوفه كاعضاء متساوين .

« اننا سكان مدن ، ولن نصبح اشخاصاً ريفيين » هكذا يجيب الخياطون السابقون والباعة المتجولون الذين وفدوا من بوخارست وفينا .

ويقول البعض « اننا نرغب في أكتساب نقود لنا كي نضع بعض المدخرات

جانباً . اننا نؤمن بالملكية – وملكيتكم الجماعية لن تكون لنا ».

ويقول آخرون« لا نريد أن نتناول طعاماً في قاعات عامة طول حياتنا وان يكون ابناؤنا منفصلين عنا » .

« وظفونا كشغيلة عندكم ، وادفعوا لنا نقداً ولا تطلبوا منا ان نصبح اعضاء في مجتمعكم » .

ان هذا اسوأ من اهانة لايمان الكيبوتز – كما أنه يخلق مأزقاً جديداً أو يسلط عليه الأضواء على الأقل . ويجد الكيبوتز نفسه مواجهاً بطلب بان يصبح « موظّف رأسمالي » . والغريب ان يأتي هذا الطلب من الراغبين في ان يكونوا شغيلة أو موظّفين . أن استئجار العمل بالنسبة للكيبوتز يعني التخلي عن أول مبادئه . ومهما يكن من أمر فهذا هو شعور جماهير المزارع الجماعية ممن يلتزمون بالاشتراكية المعتدلة لحزب الماباي . ومن جهة أخرى ، تتوق الحكومة التي يتزعمها حزب الماباي إلى توطين المهاجرين الجدد وهي تحث الكيبوتز على التخلي عن « الايدلوجية الخالصة » واستئجار العمل من مخيمات مرحلة الانتقال وتوجد بعض الاصوات من داخل الكيبوتز ممن تنادي بالمثل .إن اقتصاد الوحدات الزراعية قد اتسع بقوة في السنوات الاخيرة ولكن عدد الأعضاء ظل ثابتاً نسبياً. ولكي يبقى التوسع قائماً كان لا بد من استئجار العمل من الخارج لمنع حدوث حالة ركود . ان موضوع الساعة الاهم ، وهو موضوع يطرح من زاوية خلقية ، هو « ان نستأجر أو لا نستأجر » . ولقد اصيبت حصون الملكية العامة ببعض الثغرات ، فيشاهد المرء مجموعات من العمال المُستأجَرين في العديد من المزارع الجماعية ويعمل المُنظّرون بشقة لاستنباط صيغ جديدة مصممة لتمديد كمية العمل المستأجر ويأخذ الجميع على انفسهم من « دان الى بئر السبع » عهداً مقدساً بأن لا تصبح اعمالهم ذات طبيعة رأسمالية ، مهما بلغ علو طوفان الرأسمالية خارج حدودهم .

ولهذا ، يمكن لقصة الفلانستير (الكتائبية) ان تكرر نفسها في اسرائيل . وقد كان مصير كل تجارب الاعمال التي قامت بها الاشتراكية الطوباوية اما الانهيار او التحول الى مشاريع رأسمالية فعالة . ويمكن ان يكون هذا الأمر هو ما سيصيب الكيبوتز ايضاً ما لم يحدث نوع من التغيير الاجتماعي في الشرق الاوسط يقوم بدوره في تغيير البيئة الاوسع للكيبوتز .

ويناضل الكيبوتز حالياً كي يحتفظ بمركزه ومما يساعده في نضاله انه يخدم مصلحة قومية هامة فهو لا يزال المتراس الرئيسي لحماية اسرائيل . لقد تحمل الوطأة العظمى لحرب الاستقلال ومارس في الطليعة وفي المؤخرة كل كل المعارك . ان البنيان التنظيمي للكيبوتز يجعل منه مستعمرة عسكرية مثالية وهي تشكل احتياطاً للجيش .

إن تطلعات إسرائيل الثقافية تأثرت بشدة من جراء التغيرات في تكوين الشعب فقد شكل اليهود الذين هم من الاصل الاوروبي الغالبية العظمى من السكان في ظل الانتداب البريطاني اما الآن فهم ليسوا سوى اقلية . ويشكل المهاجرون من آسيا وافريقيا نحو نصف عدد سكان اسرائيل .

اما اليهود الذين جاءوا من شمال افريقيا الافرنسية فهم يمزجون بين تطلعاتهم العربية والفرنسية بالتساوي ، وهؤلاء صاخبون ومتمردون يجلسون مع عائلاتهم امام اكواخهم ودكاكينهم التي استولوا عليها من العرب . فيتحدث الآباء عن اعمالهم ويتجادلون حول مزايا ومساوىء رحلة ايابية للمغرب او تونس بينما نجد الاولاد يقرأون ويناقشون آخر مواضيع مجلة « انباء ادبية » Nouvelles Littéraires الباريسية . وهنالك ايضاً يهود ايران الذين يرتدون قبعات سوداء مصنوعة من جلد الحمل ، ويهود العراق وتركيا ويهود بخارى بلباسهم اليهودي الابيض المتهدل وبلحاهم الناعمة . واخيراً هناك يهود اليمن بأعينهم الوضاءة السوداء وبشعرهم الأسود الطويل اما بناتهم فيجلن اسواق

العمل بحثاً عن عمل للخدمة في البيوت .

وتروى احدى القصص كيف كان شعور اليهود اليمنيين عندما نقلت الخطوط الجوية البريطانية ٤٥٠٠٠ منهم الى اسرائيل . فقد سروا بركوب الطائرات التي لم يروها من قبل واعتقدوا بأنها كانت « اجنحة النسر الابيض » التي اخبرتهم النبوءة القديمة بأنه كان مقدراً لهم ان يعودوا عليها الى الأرض المقدسة يوم يأتي النبي المنتظر . ولكنهم اصيبوا بالرعب عندما قيل لهم بأن يركبوا الباصات التي كانت ستأخذهم من المطار الاسرائيلي الى مخيمات العبور . فلم يذكر في النبوءة شيئاً عن وسائط نقل مثل الباصات .

ان يهود اسرائيل ليسوا من التدفقات الاوروبية فحسب بل يوجد من هم من الصحراء العربية الجنوبية ايضاً . ولكن كيف سيؤثر هذا اللقاء الشرقي الغربي في التطلعات الثقافية في اسرائيل ؟ يسمع المرء شتى انواع النظريات والتكهنات العميقة في القدس وتل ابيب ويشير البعض الى نسبة المواليد العالية بين اليهود الشرقيين ويتنبأون بان اسرائيل ستصبح شرقية في النهاية ويتنبأ آخرون بتبلور حضارة اسرائيلية جديدة . واعتقد شخصياً ان اليهود الاوروبيين سوف يصهرون في النهاية ، اليهود الشرقيين فهم يمثلون الحضارة الأرقى التي « تنتصر » في العادة على الحضارة الأدنى ، وهم يغزونها الآن من خلال المدارس والجيش وكلاهما ذو اهمية حاسمة من أجل توحيد اللغة والثقافة والعادات في اسرائيل .

وفي نفس الوقت ، يوجد نوع من العداوة الملحوظة بين اليهود الشرقيين واليهود الغربيين . فقد تبوأ اليهود الغربيون جميع مراكز النفوذ في الخدمة المدنية ، الجيش ، التعليم ، الصناعة والتجارة والمالية . ويشعر اليهودي الشرقي بانه مواطن من الدرجة الثانية وانه ضحية للتمييز والعجرفة اليهودية (ويتذمر احياناً من حاجز اللون)*

---

* فى محاضرة قيمة للاستاذ صبري جريس مؤلف كتاب (العرب في اسرائيل) ذكر بأن اليهود الشرقيين هم من مواطني الدرجة الثالثة في اسرائيل ، إذ يسبقهم اليهود الغربيون والعرب . (المترجم) .

ان تظلمات اليهود من غيرهم التي طالما سمعناها من قبل ، تتردد هنا بين اليهود انفسهم . فيجد بعض اليهود الشرقيين ان حالتهم الاجتماعية قد انحطت بالمقارنة بما كانت عليه في بلادهم القديمة ، فالتاجر اليهودي الذي جاء من شمال افريقيا الفرنسية وجد نفسه في منتصف الطريق بين المستعمر والعربي المتخلف ، لقد كان في مكان ما في وسط السلم الاجتماعي . أما في اسرائيل فقد هبط إلى اسفل السلم الاجتماعي وأصبح اليهودي القادم من شمال افريقيا ، في مواجهة اليهودي الاوروبي ، في نفس موضع العربي في شمال افريقيا في مواجهة الافرنسي .

ان اليهودي الغربي مدرك لغيرة وحقد اليهود الشرقيين وهو في بعض الاحيان يبدي تخوفه منهم ، ويمكن لك ايضاً ان تسمع الشكوك التي تثار حول اخلاصهم :

« الله وحده يعلم ما اذا كانوا سيضعون ايديهم في أيدي العرب في حالة قيام اضطرابات . ليس من فارق كبير بينهم وبين العرب . أليس كذلك ؟ »

قد لا تكون هذه النظرة مطروحة جدياً في الوقت الحاضر ، غير انها تشير الى وجود نوع من التوتر . ويظن البعض انه سيأتي يوم يثار فيه حقد اليهود الشرقيين ويستغل على ايدي التحزيفيين مثلاً ، وهم حزب فاشي ليست له قوة تذكر في الوقت الحاضر . وفي ذات الوقت يقوم الجميع من احزاب وقادة بتحركات تهدف الى تحسس وعي اليهود الشرقيين الذين يشكلون نصف الامة والتأثير في معنوياتهم . وعندما يرى كبار الرسميين بانه لا بد من تبني سياسة صارمة تجاه العرب بسبب ان الشعوب الشرقية تعتبر أي سياسة اخرى دلالة ضعف ، فهم لا يقصدون العرب فحسب وانما اليهود الشرقيين ايضاً . ان اعمال الانتقام ضد العرب بما فيها مذبحة « قبية » ، قد قصد منها رفع معنويات اليهود الشرقيين وفي نفس الوقت اثارة الذعر بين العرب .

ويلتزمت معظم اليهود الشرقيين بالامور الدينية ويحذون ، احياناً ، حذو الحاخامين المتعصبين الذين جاءوا من شرق اوروبا . ولقد كان التزمت هو

العنصر المحرك ضد تقديم النساء للخدمة العسكرية . وعلاوة على ذلك فان تزمت اليهود الافريقيين والاسيويين قد ألهم بالنزوع إلى المحافظة الاجتماعية أكثر من التعصب الديني الاعمى . وهو على اية حال ، الطف وأكثر تسامحاً من تزمت اليهود الاوربيين . ان الحاخامين من بولنديين وروس ولتوانيين وانصارهم هم من بين أكثر المتعصبين تطرفاً في الدين في العالم. وتتركز بيوتهم في حي ميشيريم بالقدس والذي يشكل احتياطاً حقيقياً ليهودية العصور الوسطى .

ورغم ان اسم ميشيريم (البوابات المئة) يوحي برومانسية الاثار الشرقية ، فان « البوابات المئة » يعود تاريخها الى القرن الماضي فقط . وقد نزل اليهود المسنون والورعون في هذا الحي عندما جاءوا إلى فلسطين كي يدفنوا في الارض المقدسة .وتضج الصفوف المزدحمة من المنازل المتراصة والقذرة اثناء النهار بترانيم الصلاة وتلاوة التلمود ويوجد من المعابد اليهودية والمدارس التلمودية ومكتبات المواد والدراسات الدينية في ميشيريم ما يكاد يكون بعدد دور السكن . وتجد المقيمين بلحاهم الطويلة وعيونهم الداكنة ووجوههم الشاحبة يرتدون اثواباً سوداء طويلة حتى في أشد ايام الصيف قيظاً وهكذا يفعل الاولاد الصغار الذين يستمتعون بدراسة تفاسير التلمود على مقربة من جبل صهيون . ولا تزال القوانين العامة المرعية والتي تشكل أساس التلمود في قوتها الكاملة وهي القوانين التي تعتبر تعبيراً مثل « انظر ، يا لجمال هذه الشجرة » خطيئة مميتة اذا قالها اليهودي، بسبب ان الاعجاب لا يكون الا بالله وحده . ولهذا يحول رجال واولاد ميشيريم نظرتهم الى انفسهم او الى الاسفل ويتجنبون بذلك ارسال نظرة آثمة الى شجرة أو الى امرأة عابرة سبيل . هنا يمكن ان يحرم الهرطوقي في المعبد على صوت نفخة بوق وعلى اضواء الشموع. فاين يمكن للقانون الديني اليهودي أن يطبق بكل صرامة وقسوة ان لم يكن هنا في هذا المكان .

ويحتل المتعصبون في حي ميشيريم كل يوم جمعة وقبل حلول الغسق الطريق

العام الذي يؤدي الى احيائهم . وهم يستقبلون يوم السبت بالرقص الصاخب ويوقفون حركة المرور في الشوارع حتى ليلة اليوم التالي فويل للمغامر الذي يعبر شوارع ميشيريم الملتوية وفي فمه غليون او يمسك بذراع فتاة . فسيرجم بوابل من الحجارة لان ميشيريم يؤمن ، حسب التوراة ، برمي الآثم بالحجارة . وكذلك اذا غامر طبيب بدخول الشوارع اياها بسيارته أو بسيارة اسعاف فسينزل عليه وابل من الحجارة ايضاً .

ان اهمية ميشيريم نابعة ليس من طابعه المحلي الغريب فحسب وانما من نفوذه على الجو الحضاري الاسرائيلي ايضاً . وهذا النفوذ يجب ان لا يستخف به فالكيبوتز وميشيريم قطبان متضادان في الحياة الروحية من اسرائيل، ان « المفكرين الاحرار » و « المناضلين التقدميين » سيصبحون في موضع الخنوع اذا ما تركوا وحدهم مع اليهودية المتزمتة . وهكذا فان القانون التلمودي ما زال يحكم جميع العلاقات المتعلقة بالزواج والاسرة وهي بعض الحقول التي يسيطر عليها هذا القانون في الحياة اليهودية . ولوقت قريب ، كان احد الحاخامين المتزمتين ، وهو لا يملك الا النزر اليسير من الثقافة العلمانية ، عميداً بكلية الحقوق في جامعة القدس ، وفي كل خطوة يخطوها المرء فأنه يأتي عبر بعض الشواهد التي تدعم التهمة الموجهة سلفاً ، من ان هناك اكثر من مسحة ثيوقراطية بالية حول اسرائيل .

وقد ناقشت هذا الامر مع محرر مجلة يسارية رفيعة وهو كاتب موهوب ومترجم شكسبير الى العبرية ، واحتج ببعض الانفعال على اشارة تتعلق بوقوع اسرائيل تحت السيطرة الروحية لميشيريم . ولكنه اعترف عندما تعرض للاستجواب ، بان الاسرائيليين دفعوا جزية هامة للتزمت الديني . وهنالك مثل مضحك – مبك على ذلك : فهم لا يربون الخنازير ، على الرغم من ان تربية الخنازير يمكنها ان تسارع في تخفيف مشكلة اسرائيل الغذائية وتخفف من عبء ميزان المدفوعات. ان الكرن كايمث Keren Kaymeth وهو الصندوق القومي

اليهودي يمتلك معظم الاراضي ويقوم بتأجيرها للمزارع مشترطاً عليه ان لا يقوم بتربية الخنازير . لذلك فحتى اولئك الملحدون الذين يسكنون الكيبوتز قد خضعوا لارادة الحاخاميين. لقد حاول المحرر في البدء ان يجد كل انواع الاعذار « التقدمية » غير انه احمر وجهه بعد ذلك خجلاً وفقد اعصابه وهو يقول : « هل انت حقاً تقترح علينا أن نسمح بتربية الخنازير في هذه الارض المقدسة من اجل تخفيف الاعباء الاقتصادية ؟ كلا كلا ، كلا ! ».

ان الاسرائيليين الذين عرفوني كشخص معاد للصهيونية منذ وقت طويل ينتابهم الفضول لمعرفة ماذا افكر في الصهيونية. فأنا تخليت ، بالطبع ، عن معاداتي للصهيونية منذ زمن طويل ، تلك المعاداة التي ارتكزت على اقتناعي بحركة العمل الاوروبية ، وبصورة اشمل ، بالمجتمع الاوروبي وحضارته اللذين لم يبررا الصهيونية .

لقد اصبحت الدولة اليهودية ضرورة تاريخية بالنسبة لبقايا اليهودية الاوروبية— ولكن هل يقتصر الأمر على هؤلاء ؟ وهذه ايضاً حقيقة حية . ومهما كانت انشقاقاتهم وشكواهم وخيبتهم فان يهود اسرائيل مفعمون بحماسة مواطنة قوية ومتجددة وبعناد هائل على تعزيز وتقوية دولتهم بكل الوسائل التي تقع تحت تصرفهم . ولديهم شعور بان « العالم المتمدن » والذي يمتلك في ضميره مصير اليهودية الاوروبية ، بطريقة أو بأخرى ، لا يستند الى أساس اخلاقي عندما يحاول ان يوبخ او ينذر اسرائيل لاي خرق حقيقي او وهمي للالتزامات الدولية .

ومع ذلك فانني لست صهيونياً حتى الآن وسبق لي ان قلت هذا مراراً امام الجميع. ويتقبل الاسرائيليون الأمر بتسامح غير متوقع ولكنهم يسألون بدهشة :

« كيف يمكن لأحد ان يعتنق الصهيونية اذا كان يعترف بأن دولة اسرائيل ضرورة تاريخية ؟ » .

يا له من سؤال صعب ومؤلم ان تجيب عليه .!

لا غضاضة في ان يقفز الناس عندما تحترق سفينتهم او توشك على الغرق – سواء على قارب انقاذ أو عوامـــة . القفز بالنسبة اليهم « ضرورة تاريخية » ، ويغضي القارب الذي هو أساس وجودهم كله . ولكن هل يعني هذا ان يترجم القفز الى برنامج أو ان على المرء ان يتخـــذ من دولة القارب قاعدة للتوجيه السياسي ؟

في رأيي ان المأساة اليهودية الاخرى هي ان العالم دفع اليهودي كي يبحث عن الامان في دولة قومية في منتصف هذا القرن في الوقت الذي تردت فيه الدولة القومية في طور الانحلال .

وخلال عدة قرون ، كان كل تطور قومي في حيـــاة الامم الغربية مرتبطاً أشد الارتباط بتكوين ونمو الدولة القومية أو بالتحرك من أجل الدولة القومية . لم يكن اليهودي مرتبطاً بهذه الحركة ولم يُفد ومنها بقي منغلقـــاً في معبده وفي ولائه الديني بينما كان الرجل الغربي يخضع ولاءه الديني لولائه القومي فوجد مكانته الرفيعة في أمته لا في كنيسته . والآن فقط ، عندما لم يعد الفرد ينمو في مكانته من خلال الأمة وعندما لم يستطع ان يجد نفسه من جديد إلا في مجتمع فوق – قومي ، وجد اليهودي أمته ودولته . يا لها من مفارقة تاريخية محزنة !

يتأوه الاسرائيليين قائلين : « أرنا الأمـــة التي تخلت عن دولتها من أجل حلم عالمي أو اممي » .

بالطبع لم تفعل ذلك أي دولة ، ولم يخطر في ظني ان احث الاسرائيليين على فعل ذلك. ان الفكرة هي ان الدولة القومية تتحلل ولا تتكامل سواء ادرك الشعب هذا أم لم يدركه ورغماً عن كل جهوده في الحفاظ عليها . فمهما تنوعت مظاهر العملية على النطاق المحلي فهي تبقى عالمية الانتشار. ويكمن قسم كبير من قوة الكتلة السوفياتية في سعيها لتوحيد المنطقة الممتدة من وسط اوروبا الى البحر الصيني

اقتصادياً وكذلك توحيد القوى المنتجة لثلاثمائة مليون مواطن من سكان المنطقة. ولقد خفضت الستالينية ، من اجل تحقيق ذلك ، من سيادتها القومية بشكل صوري مع الحفاظ على مظاهرها الخارجية . ان الدول القومية في الغرب احتفظت حتى الان ، باكثر من المظاهر الرمزية الكاذبة ، غير ان هذه الدول ايضاً تركت عصورها الذهبية بعيدة ، وبعيدة جداً إلى الوراء ، وليس تشبثها بالسيادة القومية إلا مصدراً لضعفها. وكأي نظام تجاوز زمانه فان الدولة القومية يمكنها ان تديم وجودها بتكثيف جميع عمليات انحلالها الذاتي . في الرايخ الثالث وجدت الدولة القومية اوجها وحضيضها في نفس الوقت ولا يمكن لاسرائيل ، وهي تنضم إلى صفوف الدول القومية ، إلا أن تشارك في انحطاط هذه الدول .

ان أي شخص تتملكه الرغبة في وضع كتاب مدرسي يتهكم فيه على الدولة القومية لا يستطيع ان يأتي بمثال أفضل من دولة اسرائيل بجميع اروقتها المتنافرة ونتوءاتها ومضائقها التي نقشها النقاشون المهرة في الامم المتحدة .

وفي العادة تتركز لا عقلانية الدولة القومية في حدودها واسوارها الجمركية حيث تنفصل امة عن امة . لقد اقام الملايين بيوتهم ووجودهم الطبيعي في داخل الحدود وعلى المئات والآلاف من الاميال المربعة ، وبالقرب من هذه المساحات، فقط ، وفي الحدود المجاورة يقوم الجنون المطلق للدولة القومية محدقاً في الوجه . وفي اسرائيل ، يصعب تجنب التحديق الجنوني : فحيثما تذهب فانك دائماً على حدود أو اخرى :

« انظر ، فوق هناك على التل يوجد السوريون ! » .

« عبر هذا الوادي يتسلسل عرب الاردن ليلة بعد اخرى ! » .

« فوق هناك تقوم الحفارة المصرية ! ».

« احذر هذا الممر هنا — انه يقودك رأساً الى لبنان على بعد ثلاثين ياردة من هنا ! »

« لقد شيدنا محطة توليد القوة هذه تحت الأرض – وإلا فانها سوف تدمر في أول يوم من نشوب اعمال العنف » .

« من هنا تمر خطوطنا الحديدية عبر ثلاث مناطق اجنبية » .

« اننا لا نعبر هذا الطريق بعد الغسق ! فهو ملتصق بالحدود » .

وفي القدس اخذني موشى شاريت، رئيس وزراء اسرائيل ووزير خارجيتها إلى نافذة مكتبه واراني تل من الرمال التي شكلتها الرياح في الخارج يقسمها شريط من الاسلاك الشائكة . ان الحدود الاردنية – الاسرائيلية أو الخطوط المميزة للحدود تقع على مرمى حجر من هنا . وما على وزير الخارجية إلا أن يرفع رأسه من مكتبه كي يواجه « عدوه » واذا كانت الاجيال القادمة تقترح اقامة متحف لعبث الدولة القومية فينبغي عليها ان تعرض صورة لهذا المنظر من مكتب رئيس الوزراء . وينبغي عليها أيضاً ان تعرض الاسلاك الشائكة التي تقطع الان اراضي المستشفى الفرنسي في القدس وصناديق الخفارة على الحائط القديم المقابل لجبل صهيون وصور الاطفال الذين سقطوا قتلى بينما كانوا يلعبون في بيوتهم بين اشراك الاسلاك الشائكة . ان جنون الدولة القومية قد وصل إلى القدس وقسم مهد الديانات العالمية إلى قسمين .

ان الاقتصاد الاسرائيلي يعتبر مفلساً باي معيار قياسي . فالصادرات الاسرائيلية لا تغطي إلا جزءاً بسيطاً من تكاليف الواردات ويغطى معظم العجز بواسطة الأموال المتأتية من اليهودية العالمية ومساعدة حكومة الولايات المتحدة. وتشتري اسرائيل الغذاء الباهظ الثمن والمواد الخام بالجنيهات والدولارات وهي تبذل جهداً كبيراً كي تجد اسواقاً تشجيعية لمنتوجاتها. وفي الماضي كانت طرق فلسطين المؤدية الى جاراتها العربية تزدهم بعربات تحمل الغذاء الى فلسطين وتحمل البضائع الصناعية الى جاراتها . اما الآن فالتجارة في حالة توقف تام بسبب

رفض الحكومات العربية الاعتراف بالوجود السياسي لاسرائيل واستمرارها في مقاطعتها .

ان العوامل الانفجارية – شكاوى مئات الآلوف من العرب اللاجئين هي في أساس وصلب الدولة الاسرائيلية ، ويشعر اليهـــود ان الضرر الذي الحقوه بالعرب يعتبر ضرراً طفيفاً ، إذا ما قورن بمأساتهم الشخصية . وهذا أمر حقيقي ولكنه لا يستطيع ان يمنع العرب من التألم والتوق الى الانتقام . فالاسرائيليون يعتقدون بان فلسطين لم تتوقف عن كونها يهودية . اما العرب فيعتقدون بان اليهود ليسوا إلا غزاة ومتطلفين في الحاضر وفي المستقبل .

وطالما يستمر النظر الى حل المشكلة بمعايير قومية فان كلا الطرفين العرب واليهود محكوم عليهما بالتحرك ضمن دائرة وحشية من البغض والانتقام . يغتال العرب الامهات والاطفـــال اليهود ويرتكب اليهود مذبحة «القبية». ويتحين العرب الفرص لإحداث تغير في شؤون الشرق الاوسط كي تسنح لهم الفرصة لتحطيم اسرائيل ! وهم في نفس الوقت يرقبون بتركيز أي هفوة يمكن ان ترتكبها اسرائيل. ويأمل الاسرائيليون ان تبقى الدول العربية متخلفة كسولة فاسدة وبدون اصدقاء الى الابد كما كانت خلال الحرب العربية – اليهودية ، والا فان الاسرائيليين لن يستطيعوا ان يحموا اراضيهم في وجـــه ٤٠ مليون عربي حتى ولو ازداد عددهم ثلاثة اضعاف ما هم عليه الآن . ان كل جانب يرى سلامته وازدهاره في انعدام امن وخراب وكارثة الآخر .

ويبدو انه ليس هناك من مخرج فوري لهذه الازمـــة . ولربما يعثر على مخرج ، في الاجل الطويل ، يتجاوز الدولة القومية وقد يكون في اطار اوسع ، اتحـاد فدرالي للشرق الاوسط . عندئذ يمكن لاسرائيـــل ان تلعب دوراً متواضعاً بين الدول العربية يمثل نسبة عدد سكانها ودوراً كبيراً يتناسب مع طاقاتها الفكرية والروحية . وكما قيل لي فان هذه الفكرة تحرز تقدماً بين السياسيين من الشباب والمفكرين في كلا الجانبين . ولكنها لن تحرز تقدماً على الارجح ،

في المستقبل القريب. فما زال اليهود منتشين بشكل عميق بكسبهم للدولة القومية واما العرب فقد اصبح الظلم الذي لحق بهم هاجساً يحد من نظرهم بعيداً الى الامام. ان اي تنظيم فوق – قومي مثل اتحـــاد فدرالي للشرق الاوسط سيكون مفيداً للجانبين . بيد انه في بعض الاحيان لا شيء سوى موسيقى المستقبل، تستحق الاستماع .

اسرائيل في الذكرى العاشرة لتأسيسها

ليس من المدهش ، ان نجد الأسرائيليين ينظرون إلى تجربتهم الخاصة بشيء من الافراط . وعلى سبيل المثال يتساءل ابا ايبان احد ساستهم المفوهين: ما هي اسرائيل الحديثة ان لم تكن وحدة هذا الشعب ، الأرض ، واللغة في تحقيق سام لدورة التاريخ ، وغير جسر ملقى عبر خليج القارات والاجيال ليرمز إلى وحدة كل التجربة التاريخية ؟ لا بد أن يشعر المرء بان هذا التفسير الرومانطيقي لاصول ومعاني اسرائيل غير مرض . انه يطوق الحقائق التي كنا جميعاً شواهد عليها بغشاوة ذهبية من الخيال ويرمى بحجاب من الوهم على وقائع الماضي القريب ، ولربما يحضر بصورة خطرة امكانيات غير حقيقية ويضعها امام اسرائيل .

فنحن لم نعد نحيا بعد الان في عصر البطولات الاسطورية — فمثل هذه الخرافات التي تخلى عنها عصرنا كانت بمجموعها رثة وقصيرة في عمرها . لم تأتِ دولة اسرائيل الفريدة في عالمنا المعاصر ، الى الوجود كي تكون « تحقيقاً سامياً لدورة التاريخ ولكي ترمز إلى وحدة التجربة التاريخية » ولم يكن خلاص اليهود المنتظر بالارض الموعودة هو ما أعطى الميلاد لها . فما هي الحقائق اذن ؟

رفضت الاغلبية الساحقة من اليهود ، قبل مجيء النازية ، وحتى بعد مجيئها ، ان تستجيب لنداء الصهيونية . وحتى في اوروبا الشرقية ، حيث شكل اليهود

مجتمعات كبيرة مكتظة وتحدثوا بلغتهم الخاصـة وطوروا ادبهم وثقافتهم وحيث عانوا من التمييز العنصري . ذلك أنهم ظلوا يعتبرون انفسهم مواطنين في البلدان التي عاشوا فيها وربطوا مستقبلهم بمستقبل تلك البلدان وليس بمستقبل الوطن اليهودي في فلسطين . ان نصف اليهود في شرق اوروبا وخاصة حركة العمال اليهودية القوية والنشطة كانت تنظر الى فكرة مثل هذا الوطن بخصومـة واعية وقوية . ولم تكن الطبقة الوسطى اليهودية راغبة في التخلي عن اوضاعها القائمة وفي استئصال ذاتها في سبيل الحـلم الصهيوني . وعلى الرغم من ذلك ، شكل يهود اوروبا الشرقية المنبع الرئيسي الذي نهلت منه الصهيونية تأييدهـا فقد جاء منها معظم القادة والرواد والمجندين الاسرائيليين . أمـا في الاماكن الاخرى فقد اتسمت الاستجابة للصهيونية بضعف بالغ نسبياً.

ولربما يقول الصهيونيون – ومن يستطيع ان ينكر قولهم – ان اليهوديـة الاوروبية كانت ستنجو لو انها اتبعت نداء الصهيونية . إن حقيقة عداوة اليهود او فتورهم تجاه فكرة الوطن القومي اليهودي قـد انبثقت من ثقتهم العميقة بالتقاليد والامكانيات الانسانية للحضارة الاوروبية . أما الصهيونية فلم تر ان مستقبل اليهود يكمن في اوروبا – فالصهيونية تمثل النموذج السياسي للريبة اليهودية من العـالم غير اليهودي.

وجاءت الاحداث لتبرهن ان هذه الريبة كان لها ما يبررها مما الحق الخزي باوروبا إلى الابد . ولقد أصبح هذا واضحاً بصورة مرعبة بعـد ان لاقى ٦ ملايين من اصـل ١٥ مليون يهودي حتفهم في غرف الغـاز وبعد ان واجه الاسرائيليون مطاردة البريطانيين في شواطىء فلسطين للسفن المحملة بحطـام اليهودية الاوروبية . بعد كل هـذا فقط اصبحت دولة اسرائيـل حقيقة لا تنكر . لقـد جاءت الى الوجود لا كتحقيق سام لدورة التاريخ وانمـا كفعل لليأس اليهودي وكشاهد لأشرس طور في التاريخ الاوروبي، طور الجنون والانحطاط .

ان اسرائيل، إذا ما تحدثنا بلغة السياسة العملية، مدينة بوجودها وبقائها لمصادفات مثيرة للدهشة في ظروف يصعب ملاحظتها عند النظر للاحداث من علياء الرومانسية القومية. كان هناك عوامل معينة تجري في صالح اسرائيل. فقد كان العرب متخلفين كلياً ومنقسمين بعضهم على بعض وبدون اصدقاء. وكانت بريطانيا تتراجع عن الشرق الاوسط بسبب تفسخ امبراطوريتها اما الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وهما الخصمان الرئيسيان في الحقبة الجديدة، فقد اتخذا موقفاً موقفاً معادياً لبريطانيا ومارستا ضغطاً عليها كي تزداد تراجعاً. وكان اليهود يتمتعون بمزايا التنظيم والتدريب الاوروبي المتفوق ويستمدون مصادر قوتهم في حرب الاستقلال التي قاتلوا بها من الولايات المتحدة واوروبا الشرقية. وكان من الممكن ان تكون حصيلة الصراع مختلفة لو ان العرب كانوا أقل انقساماً وافضل تسليحاً وتدريباً او لو أن بريطانيا لم تتراجع او لو ساند الاتحاد السوفياتي او الولايات المتحدة الشعوب العربية.

ان هذا التفاعل بين العوامل والذي جرى في صالح اسرائيل كان موقتاً بطبيعته. وبدا ان القادة الاسرائيليين يغفلون هذا الأمر. لقد كانوا ينظرون عن وعي او دون وعي، الى ظروف عام ١٩٤٨ على انها ظروف المستقبل وبنوا سياستهم على هذا الاساس. وعلى الرغم من تخوف الأسرائيليين الجزئي من من مساندة الحكام السوفيات للعرب مؤخراً غير انه يبدو ان قادتهم كانوا واثقين من انهم سيجدون وبطريقة ما، اصدقاء اقوى في العالم. وهم يفترضون ان جيرانهم العرب سيبقون الى الأبد او الى وقت طويل بنفس التخلف والانقسام اللذين كانوا عليها قبل عشر سنوات. ان الاسرائيليين، باستخفافهم بامكانيات جيرانهم وقدرتهم على التقدم، انما يتصرفون كالمصابين بالغرور والازدراء اللذين يكنهما الاوروبيون القدماء للآسيويين والافريقيين وهو ازدراء يحاول الاوربيون ببطء ان يشفوا انفسهم منه (لكنهم يفعلون ذلك من خلال تجربة مرة وقاسية). ويظهر بن غوريون احياناً كأنه آخر رسوبات النظرة القائلة بأن على

عاتق الجنس الابيض تقع مهمة تحضير الشعوب الأخرى . ومما لا شك فيه ان مغامرة السويس وضعف المصريين قد عززا الاسرائيليين في هذا الصدد . واذا كان الامر كذلك فان انتصار سلاح الاسرائيليين في سيناء سيكون في نتائجه البعيدة اسوأ من هزيمة بالنسبة لاسرائيل .

هنا نصل إلى النقطة الحاسمة في علاقات اسرائيل بالعالم ومواقفها من الامم الناشئة في آسيا وافريقيا . فعندما يوجه المرء انتقاداته إلى سياسة اسرائيل فانه يلقى جواباً بان انبثاق دولة اسرائيل يجب ان ينظر اليه كجزء من استيقاظ الشعوب المستعمَرة وشبه المستعمَرة. ويقول احد الكتاب الصهيونيين التقدميين: « بعد كل حساب ، ينطبق هذا (النقد) على معظم دول آسيا وافريقيا تقريباً . فاسرائيل ليست وحدها فهناك دول الهند ، بورما ، سيلان غانا ، نيجيريا ، المغرب ، تونس ، ليبيا والسودان — والعملية مستمرة ».

مرة أخرى نجد الأسطورة ممتزجة بالحقيقة ، ذلك ان نهوض بورما وغانا والهند من حالة الخضوع للاستعمار الى حالة الاستقلال كان يجري ضمن عملية عضوية اجتماعية وسياسية بطريقة مخالفة لنهوض دولة اسرائيل . والاسوأ من هذا ان اسرائيل وجدت نفسها في صراع معلن أو خفي مع العديد من الدول الناشئة في آسيا وافريقيا . فليس بوسع اسرائيل ان تحصل على كلتا الفائدتين ، فهي لا تستطيع ان تقدم نفسها كإحدى تلك الدول الناشئة وتدعي لنفسها الحقوق المستحقة لتلك الدول وفي نفس الوقت تتابع مصالحها الخاصة الحقيقية والوهمية في معارضة دائمة لهذه الدول أو في تحفظ متغطرس .

كانت تلك المعارضة تعود جزئياً الى الظروف التي ولدت فيها دولة اسرائيل ففي بداية ولادتها لم تقو اسرائيل على منع نفسها من انتهاك حقوق العرب . ولكن مصلحة اسرائيل ، وهذا أمر كانت تستطيع بل يتوجب عليها القيام به ، ان تبذل كل ما في وسعها كي تخفف من آلام العرب وتحد من اسباب الخصومة

بين الجانبين . ومع ذلك ، فانها عوضاً عن ذلك عمدت الى القيام بمختلف الاعمال التي تزيد تفاقم الوضع وتضاعف العداوة – واسوأ ما فعلت في هذا الصدد كان احتلالها لسيناء . لقد شكل هذا الأمر عبئاً ثقيلاً وخطيراً على ميزانية اسرائيل مما سيفوق مع الوقت كل الايجابيات المتوفرة . ففي المدى الطويل لا تستطيع اسرائيل ان تحيا على حدود افريقيا وآسيا وان تكون في صراع مع بلدان القارتين . لقد غدت ملاذاً للاحياء من اليهود الاوروبيين فتتحاشى ان تصبح مصيدة موت لهم !

وانها لمفارقة تاريخية محزنة ان نرى اليهود قد حازوا على دولة خاصة بهم في منتصف هذا القرن ، في وقت اصبح فيه أفول نجم الدولة القومية يبدو أكثر بداهة من سنة الى أخرى . لم يرتبطوا بالدولة القومية عندما كانت في أوجها عندما كانت تشكل عاملاً للتقدم المادي والاخلاقي للعديد من الشعوب وعندما سجلت تفوقها على اقليمية العصور الوسطى واكتسحت الاقطاعية وساعدت في تحرير الاوروبيين من عبودية الكنيسة . وعندما تجاوزت اليهودية الحديثة في آفاقها العقلية حدود المعبد والسوق المالي فانها اعطت اوروبا اعظم المبسطين للنظرة العالمية للانسان من سبينوزا الى ماركس .

لقد كان على اليهود بحكم ظروف وجودهم ان يرتفعوا فوق حدود النظرة القومية وان يتغلبوا على ولعهم بالدولة أو الامبراطورية وان ينظروا الى اشكال تتخطى الحدود القومية لوجودهم الاجتماعي . والآن عندما دخلت الدولةالقومية طور الانحلال واصبحت تنطوي على مفارقة تاريخية تامة وعندما تمكنت الثورة الدائمة في التكنولوجيا من جعل قضية وجود اشكال تتخطى الحدود القومية ، قضية حياة أو موت للبشرية ، في هذا الوقت ، يقوم اليهود بتسخير اندفاعهم المطلق ومواهبهم العظيمة في دولتهم الخاصة وفي قوميتهم الخاصة .

على أن هذا ليس خطأ اليهود وليس للعالم الحق في توجيه اللوم اليهم .

غير ان التناقض يبقى قائماً ، ويمكن لليهود ايضاً ان يكونوا اكثر إدراكاً للامر عما هم عليه الآن . حقاً اننا لا نتوقع من اسرائيل ان تعطي العالم مثلاً في التخلي عن الدولة القومية من أجل أشكال أعلى من التنظيم الاجتماعي ، ولكن يمكن للاسرائيليين – على الأقل – ان يتخذوا نظرة أكثر تعقلاً لحالتهم وفرصهم وان يحرسوا أنفسهم من الانجراف بحمّى قوميتهم . وعليهم ، ايضاً ، ان يرحبوا بسماع انتقادات الآخرين الموجهة لدولتهم . فاسرائيل شيء مخلوق وليس حرمة مقدسة فهي ليست دولة قومية « مختارة » .

مرة أخرى يمكننا ان نتذكر هنا قوميات الامم الفتية الاخرى كالهنود والمصريين وغيرهم . بيد ان فقدان الانسجام ليس ظاهراً في أي من هذه القوميات بقدر ظهوره فى الشعب الاسرائيلي وذلك بالنظر الى عمق التقاليد الأممية لديه بالنسبة لما هي عليه عند الشعوب الأخرى . ومع ذلك فان قومية هذه الشعوب معرضة لنفس الانتقادات والاعتراضات .

ان حماس شعب يناضل من أجل ان يحرر نفسه من الحكم الاجنبي يستحق الاحترام والاعجاب . ولكن غالباً ما يحدث بعد التحرير ان تزداد الحماسة وعندئذ يساء استعمالها وتسخر لسياسات لا تستحق الاحترام . وبالنسبة لشعب تابع فان الاستقلال في دولة هو ضرورة حيوية ونوع من التقدم ، ولكن في الوقت الذي يصل فيه هذا الشعب الى مرحلة الاستقلال ، لا شيء سيكون أشد تأثيراً في تأخره من تثبيت عقله على تلك المرحلة ورفضه ان يتطلع إلى ما بعدها . ان قومية شعب متحرر تستطيع ان تدعى لنفسها المبررات التي تدعيها قومية شعب مضطهد .

ان هذه ليست قضية قاعدة مجردة فقط . ان مستقبل اسرائيل يمكن ان يتوقف على مدى تخلص يقظة الاسرائيليين من الوهم وقدرتهم على إيجاد لغة مشتركة مع الشعوب المجاورة .

الحرب الاسرائيلية العربية حزيران ١٩٦٧

ان الحرب و « معجزة » النصر الاسرائيلي لم تحـلا أياً من المشاكل التي كانت قائمة بين اسرائيل ، وبين الدول العربية ، على العكس ، لقد ضاعفت الحرب من من خطورة المشاكل القديمة ، وخلقت مشاكل اخرى جديدة أكثر خطورة من المشاكل السابقة ، ثم ان هذه الحرب لم توفر لاسرائيل الأمن الذي كانت تنشده ، بل جعلتها عرضة للمتاعب اكثر من أي وقت مضى . وانني مقتنع بأن النصر الاسرائيلي سيتحول في المستقبل القريب الى كارثة تصيب دولة اسرائيل نفسها .

لنلق نظرة على الإطار العالمي الذي جرت ضمنه الأحداث. يجب اولاً وضع هذه الحرب داخل نطاق الصراعات الايديولوجية التي تدور على مستوى العـالم بأسره ، فمنذ عدة سنوات ، تشن الامبريالية الامريكية بالتعاون مع حلفائهـا هجوماً سياسياً وايديولوجياً واقتصادياً وعسكرياً واسعاً في آسيا وافريقيا ضد خصومها ابتداء بالاتحاد السوفياتي الذي يقـــاوم متقهقراً هذه الهجمات . وقد اسفرت هذه السياسة الهجومية عن نتائج عديدة : منها قيام حـكم عسكري في غانا أطاح بحكومة نكروما ، والموجة الرجعية التي غمرت عدداً من البلدان الافرو — آسيوية ، كانتصار للتيار المعادي للشيوعية في اندونيسيـا ، الذي هو

بمثابة انتصار هام لقوى الثورة المضادة في آسيا ، وتصاعد الحرب الفيتنامية ، واخيراً الانقلاب العسكري الذي حدث في اليونان، وما الحرب الاسرائيلية — العربية سوى حلقة من حلقات الاحداث المترابطة فيما بينها .

ومع هذه الأحداث ، اخذ ينمو تيار معاكس : تحرك ثوري في الهند ، وموقف اكثرجذرية في بعض البلدان العربية ، ونضال فعال تقوده جبهة التحرير الوطني في فيتنام ، وتعاظم حجم المعارضة للتدخل الامريكي ، بمعنى آخر ان التقدم الذي أحرزته الامبريالية الامريكية رافقه نمو قوى معارضة بقيت بلا جدوى ، فيما عدا ما يجري في فيتنام .

ويتصف الهجوم الامريكي في الشرق الاوسط بأنه حديث العهد نسبياً قياساً بمناطق اخرى من العالم ، فأثناء حرب السويس ، تبنت الولايات المتحدة موقفاً « معادياً للاستعمار » وتصرفت بالاتفاق — على الاقل ظاهرياً — مع الاتحاد السوفياتي باتجاه المطالبة بانسحاب القوات البريطانية والفرنسية . وكان منطق السياسة الامريكية حينذاك لم يتغير عن الشكل الذي ظهر فيه في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، أي في الفترة التي ظهرت اثناءها دولة اسرائيل الى الوجود ، وبقي « البيت الأبيض » يلعب دور البطل « المعادي للاستعمار » ، ما دامت مصالح الطبقة الامريكية المسيطرة تعمل على طرد القوى الاستعمارية القديمة من آسيا وافريقيا . وبعد ان اسهم الامريكيون في اسقاط الامبراطوريات القديمة، شعروا بالخوف من ان تحل القوى الثورية ، أو الاتحاد السوفياتي ، أو الاثنان معاً محل الاستعمار التقليدي الذي انهار نفوذه ، وتناست الولايات المتحدة عداءها للاستعمار ، ودخلت مسرح الاحداث .. وحدث ذلك اثناء الفترة الواقعة بين حرب السويس ، وبين الحرب الاخيرة . عندما أنزلت امريكا قواتها في لبنان ١٩٥٨ ، كانت غايتها القضاء على الانتفاضات الثورية التي كانت تتوالى على هذه المنطقة من العالم ، وخاصة العراق . ومنذ ذلك الحين ظلت الولايات المتحدة

تتجنب – اعتماداً على موقف الاتحاد السوفياتي « المعتدل » –كل تدخل عسكري مباشر في الشرق ، وتعلن عن موقفها المحايد ، هذا مع العلم بأن وجودها في هذه المنطقة اصبح وجوداً فعلياً .

أما الاسرائيليون فكانوا يتصرفون بوحي من مبرراتهم الذاتية ، وليس فقط لخدمة السياسة الامريكية . واذا كانت اكثرية الجماهير الاسرائيلية قد اعتقدت بأن العداء العربي يشكل تهديداً لها ، فهذا مما لا شك فيه ، ومن البديهي ان الاسرائيليين قد أصابهم الهلع وهم يسمعون اصواتاً عربية تعلن بأنها ستمحو اسرائيل من الخريطة . ولقد شعر هؤلاء بالعزلة امام طوق العداء العربي الذي يحيط بهم ، لا سيما وان مأساة يهود اوروبا ما تزال تقض عليهم مضاجعهم . ولقد كان من السهل تماماً على ارباب الدعاية في اسرائيل - يساعدهم على ذلك التطرف الكلامي الذي عمد اليه بعض العرب – استغلال خوف يهود آسيا من « حل نهائي » آخر ، واستعمان هؤلاء بكل اساطير الكتاب المقدس والرموز القومية القديمة لإثارة روح التعصب والكبرياء بين صفوف الاسرائيليين، وشاهدنا آثار هذه الحملة لدى اولئك الذين غزوا سيناء ، وحائط المبكى، ونهر الاردن، وأسوار اريحا . وتكمن وراء هذه الغطرسة وهذا التطرف عقدة الذنب التي يشعر بها اليهود تجاه العرب ، وتصورهم بأن العرب لن يغفروا لهم مطلقاً ما أصابهم من كوارث ونكسات . كضياع اراضيهم ، والمصير الدامي لاكثر من مليون لاجيء والهزائم العسكرية المذلة التي نزلت بهم . وتبنت الغالبية العظمى من الاسرائيليين تحت تأثير الخوف من الانتقام العربي « وجهة نظر » حكومتهم التي تقول بأن سلامة اسرائيل لا يمكن ان تتوفر إلا بفضل حروب متوالية دائمة تؤدي في نهاية المطاف الى القضاء على قوة البلدان العربية قضاء مبرماً .

ولكن مهما كانت المبررات والمخاوف، فان الاسرائيليين لا يتصرفون بصورة مستقلة تماماً . ويمكن للمرء ان يرى تبعيتهم إذا ما استعرض تاريخ دولتهم منذ عشرين عاماً . لقد بذلت حكومات اسرائيل كل ما في وسعها لكي تجعل من

« التوجه الغربي » الشرط الاول والاخير لوجود دولتهـــا ، وهكذا تحولت اسرائيل الى مركز أمـامي للغرب في الشرق الاوسط ، وشاركت في الصراع الذي يدور بين الامبريالية ، وبين الشعوب العربية المناضلة في سبيل تقدمها . ولم يجد اقتصاد اسرائيل استقراره إلا بفضل المساعدات المالية التي أتته من الخارج ، وبوجه خاص من الصهيونية الامريكية ، وقد شكلت هذه المساعدات نوعاً من الفائدة الغريبة التي أتاحت للحكومة تأمين ميزان المدفوعات دون الحاجة الى ان تعمد الى ما تفعله بقية الحكومات كالتبادل التجاري مع الدول المجاورة ، وأدت ظاهرة المساعدات هذه الى ارساء أبنية الاقتصاد الاسرائيلي على أساس مغلوط ، لانها شجعت على نمو قطاع هام غير منتج ، ووفرت مستوى معيشـة لا علاقة له بالانتاج الفعلي للبلاد .

وفي الواقع ، لقد عاشت اسرائيل خلال مدة طويـــلة في مستوى يفوق طاقاتها ، وكانت تستورد لفترة غير قصيرة ما يقارب نصف المواد الغذائية التي تحتاج اليها ، من الغرب . وبما ان الحكومة الامريكية تعفي من الرسوم الارباح التي تقدم « هبة لاسرائيل » ، فانها تشرف بالتالي على الاموال التي يتوقف عليها مصير الاقتصاد الاسرائيلي ، وبامكان « البيت الابيض » ساعة يريد ان يوجه ضربة قاصمة لاسرائيل بفرضه الضرائب على الاموال المرسلة اليها (وهذا يحرمه من أصوات الناخبين اليهود) ، ومع أن امراً من هذا النوع لم يحدث الى الآن ، إلا ان احتمال قيام مثل هذا الخطر هو الذي يؤمن للسياسة الامريكية تأييد اسرائيل الدائم لها .

وقبل بضع سنوات ، عندما قمت بزيارة اسرائيل ، ذكر لي أحـــد كبار الموظفين عدد المصانع التي لا يحق للاسرائيليين اقامتهـــا ، لان الامريكيين يعارضون ذلك ، وبوجـــه خاص اقامة مصانع الفولاذ ، ومصانع التجهيزات الزراعية ، وأشار الموظف بالمقابل الى قائمة من المصانع ـ غير المجدية عملياً ـ

تنتج بكميات لا تصدق لعباً ولوازم المطابخ المصنوعـة من البلاستيك ، الخ ...
كذلك لا أمل لأية حكومـة اسرائيلية بان تحس بأن لها الحرية في توثيـق
علاقاتها مع البلدان العربية ، أو مع الاتحاد السوفياتي ودول اوروبا الشرقية .

وقد تركت هذه التبعية الاقتصادية آثارها على السياسة الداخلية لاسرائيل ، وعلى « مناخها الثقافي » ، لان « صاحب الفضل » الامريكي هو في الوقت نفسه المساهم الاساسي في الاراضي المقدسة . ثم ان رجل الاعمال اليهودي الثري يتصرف في بلاده كسواه من رجال الاعمال ، ويمارس تأثيره في اسرائيل باتجـاه اكثر الاديان رجعية ، ويبدي حذره من الاشتراكية مها كانت معتدلة سواء تمثلت في «الهستدروت» او «الكيبوتز» ، ويبذل قصارى جهده للحد من نشاطها ، لانه يعتبر نفسه رمزاً للمبادرة الحرة وبطلاً من ابطالها ، ورجـل الاعمـال ايضاً هو الذي يساعد رجال الدين اليهود على المحافظة على تأثـيرهم في التشريعات ، وفي التربية الى حد بعيد ، للأبقاء على روح الاستعـلاء العنصرية لدى الأسرائيليين ، وليعمق من تعصبهم للتلمود ، وهذا ما سبب في مضاعفة التناقضات بينهم وبـين العرب .

ولقد زادت الحرب الباردة من خطورة شق التيارات الرجعية ومن اسباب الخلاف بين اليهود وبين العرب . فقد كانت اسرائيل تأخذ دائمـاً الجانب المعادي للشيوعية . والحق يقال ، ان هذا الموقف كانت له اسبابه : موجـة اللاسامية خلال السنوات الاخيرة لحكم ستالين ، الحجج المعادية لليهود التي استعملت اثناء محاكمة سلانسكي وراجك وكستوف وتشجيع الاتحاد السوفياتي للقومية العربية في اشكالها المتطرفة ، الخ ... على أنه يجب ان لا يغرب عن البال من ناحية ثانية ، بأن ستالين كان اول من أيد اسرائيـل ، وان الاسرائيليين حاربوا خلال عامي ١٩٤٧ — ١٩٤٨ بفضل الاعتدة التشيكوسلوفاكية التي زودوا بها بناء على اوامر ستالين ، وان المندوب السوفياتي في هيئـة الامم المتحدة كان اول من اعترف بأسرائيل . ويمكن القول بان ستالين لم يبدل موقفه تجاه اسرائيل ، الا لأن هذه

الأخيرة وقفت دائمـــاً الى جانب السياسة الغربية ، يضاف الى ذلـك ، ان الحكومات الاسرائيلية لم تدخل أي تغيير على سلوكها هذا على أثر وفـــاة ستالين .

وهكذا اصبح هدف السياسة الاسرائيلية الاول : الوقوف بأي ثمن في وجه كفاح العرب في سبيل تقدمهم ، وهذا ما يفسر دور اسرائيل في قضية حرب السويس عام ١٩٥٦ . ولقد كان هدف الوزراء الاسرائيليين الاشتراكيـين – الديمقراطيين ، والدوائر الاستعمارية الغربية حينذاك هو الابقاء على تخلف العرب ، وعلى الخلافات القائمة بينهم ، واستعمال قوى الاقطاع والرجعية الهاشمية لضرب القوى الجمهورية والثورية . وفي بداية عام ١٩٦٧ ، عندما اعتقد الملك حسين بأن انقلاباً جمهورياً بات يهدده ، لم يتردد اشكول بالقول بأنه في حال حدوث انقلاب ناصري في عمان ، فان القوات الاسرائيلية ستدخل الاردن . وفي مطلع الصيف الفائت ، توالت الاحـداث بعد سياسة التهديـد التي سارت عليها تجاه النظام السوري الذي اعتبرته متطرفاً في ناصريته (وبالفعل كانت الحكومة السورية تبدو اكثر يسارية ، واكثر معاداة للامبريالية من الحكومة المصرية) .

هل كانت اجهزة المخابرات السوفياتية صادقة في ظنونها ، وهل كانت موسكو صادقة عندما أبلغت عبد الناصر بأن اسرائيل تنوي الهجوم على سوريا في شهر أيار ؟ اننا لا نعلم شيئاً من هذا الأمر ، ولكننا نعرف بأن عبد الناصر أرسل قواته الى حدود سيناء تحت الحاح موسكو ، وبنـاء على تشجيعها . واذا كان صحيحاً أن اسرائيل كانت تنوي مهاجمـــة سوريا ، فأن مبادرة عبد الناصر ، أدت الى تأخير هذا الهجوم بضعة اسابيع ، اما اذا لم يكن صحيحاً ان اسرائيل كانت جادة في الاعداد للهجوم على سوريا ، فان الموقف الذي اتخذه الاسرائيليون اشعر العرب بخطر يماثل الخطر العربي الذي أحس به الاسرائيليون . وعلى كل حال ، لقد كانت الحكومات الاسرائيلية المتوالية مقتنعة بأن كل بادرة عدائية

تقوم بها ضد سوريا ، أو ضد مصر ستكافأ عليها ، وسينظر اليها الغرب بعين الرضى . ولعبت هذه الحسابات دورها في الهجوم الوقائي الذي شنته اسرائيل في ٥ حزيران الفائت .

لقد كان الاسرائيليون واثقين تماماً من الدعم المعنوي والسياسي، والاقتصادي الذي سيأتيهم من اميركا ، ويتوقعون ان تساندهم بريطانيا كذلك، وأنهم — اي الاسرائيليين — مهما تمادوا في تصرفاتهم، فانه يمكنهم الاعتماد على الحماية الدبلوماسية التي سيوفرها لهم الامريكيون ، وقد اصابوا في تقديراتهم ، ولم يتردد « البيت الابيض » والبنتاغون في تقدير اولئك الذين انطلقوا — لاسباب خاصة بهم — لغزو العرب اعداء الأستعمار الامريكي الجديد، ومثل الجنرال ديان دور المارشال « كي » في الشرق الاوسط بطريقة فعالة وسريعة ووحشية . ووجدت امريكا في شخص ديان حليفاً اقل كلفة واكثر كفاءة من حليفها كي.

ان الموقف العربي الذي امتاز بالتردد يتناقض مع الموقف المتصلب والراغب في القتال الذي اتخذته اسرائيل ، فعندما اعلن عبد الناصر — بتشجيع من موسكو — عن ارسال قواته الى سيناء ، قرر ايضاً دون استشارة موسكو اقفال مضايق تيران في وجه الملاحة الاسرائيلية ، ولم يكن لهذا التصرف — مع انه كان استفزازياً — سوى نتائج محدودة النطاق ، وقدر الغربيون بأن الأمر لا يستحق الذهاب حتى تيران لاختبار جدية الحصار ، هذا مع العلم بأن هذه المبادرة، كانت نصراً معنوياً لعبدالناصر لانه ازال اخر آثار حرب السويس (ونذكر هنا ، بانه قبل حرب السويس ، لم يكن يسمح للسفن الاسرائيلية بالمرور عبر مضايق تيران) ، وزعم الاسرائيليون حينئذ بان الحصار هو بمثابة خطر عميق يهدد حياتهم الاقتصادية ، وهذا ليس صحيحاً . وردوا على الحصار باعلان التبعئة وتوزيع قواتهم على الحدود .

ولكن المسؤولية الحقيقية يجب التفتيش عنها في الكرملين — مهما كانت الاخطاء

التي وقع فيها العرب - لقد كان موقف بريجنيف وكوسيغين مماثلاً للموقف الذي اتخذه خروتشيف اثناء الازمة الكوبية ، فالذي حدث اولاً هو اثارة استفزاز غير ضروري ، وتقدم غير حذر حتى حافة الحرب ، ثم تلا ذلك ذعر مفاجىء وانسحاب سريع ، واخيراً جهود غير كافية حتى لا تفقد موسكو ماء وجهها ، وحتى تمسح اثار الفشل . لماذا طلبت موسكو من عبد الناصر ان يمتنع عن أي عمل عسكري بعد أن غذت مخاوف العرب من اسرائيل ، وشجعتهم الى حد المجازفة ، ووعدتهم بالدعم والتأييد ، وارسلت وحداتها البحرية إلى المتوسط للوقوف في وجه تحركات الاسطول السادس الامريكي ؟.

عندما تصاعدت الازمة ، تحرك « الهاتف الاحمر » بين الكرملين ، وبين « البيت الابيض » ، وقرر الطرفان الكبيران تهدئة الاطراف المتنازعة . وبينما قدمت امريكا توصياتها للاسرائيليين بطريقة شعر من خلالها هؤلاء ، وكأنها تشجعهم على الهجوم الوقائي (ولم يصل إلى اسماعنا معلومات تقول بأن السفير الامريكي ايقظ رئيس الوزراء الاسرائيلي لكي يطلب اليه بالحاح بأن لا يفتح الاسرائيليون النار) حذر السوفيات عبد الناصر بطريقة حاسمة . وبالرغم من ذلك فأننا نتساءل عن الاسباب التي جعلت عبد الناصر لا يأخذ الترتيبات المناسبة !.. هل قال السفير السوفياتي - اثناء مقابلته الليلية- لعبد الناصر بأن موسكو مقتنعة بأن الاسرائيليين لن يفتحوا النار !.. هل تكون واشنطن هي التي قدمت هذا التأكيد لموسكو ؟.. هل هي سذاجة السوفيات الذين قبلوا بجدية هذا التأكيد وتصرفوا بوحي منه ؟ كل ذلك لا يصدق .. ولكن هذه الفرضيات هي وحدها التي تتيح تفسير موقف عبد الناصر ، والدهشة التي بدت على السوفيات عندما نشبت الحرب .

وراء هذا الغموض يبدو ذلك التناقض الحاد في السياسة السوفياتية ، فالمسؤولون السوفيات يرون في بقاء الاوضاع العالمية على حالها « بما في ذلك

الاوضاع الاجتماعية » الشرط الاساسي لسلامتهم القومية ، و« للتعايش السلمي»، ولهذا نراهم يقفون على مسافة معينة من الاماكن التي تحدث فيها تفسيرات اجتماعية ، ويتجنبون المجازفات الخطرة. ولكنهم من ناحية أخرى لا يستطيعون لاسباب عقائدية وسياسية تجنب المواقف الخطرة تجنباً تاماً. فالاستعمار الامريكي الجديد يصطدم بصورة مباشرة وغير مباشرة باعدائه الافرو – اسيويين والامريكيين اللاتينيين الذين يتجهون لموسكو لطلب العون والحماية. وفي الاحوال العادية ، يبقى هذا التناقض كامناً : فهم يساعدون بحذر أصدقاءهم الافرو – أسيويين والامريكيين اللاتينيين ، ويزودونهم بالسلاح ، ولكن عاجلاً أو اجلاً ستنفجر الازمة ، وسيصبح من المستحيل اخفاء معالم هذا التناقض ، وينبغي لموسكو عندئذ ان تختار واحداً من امرين : أما الابقاء بأي ثمن على الاوضاع القائمة ، وأما دعم اولئك الذين ينشدون تغييرها ، وقد اختارت موسكو حتى الان جانب المحافظة على الاوضاع القائمة .

وانها لمشكلة حقاً .. قد يكون لها نتائجها الخطيرة في هذا العصر الذري ..

إن الاوضاع الحالية هيَ ثمرة العلاقات الاسرائيلية – العربية التي كانت – وما تزال – قائمة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وحتى منذ انتهاء الحرب العالمية الاولى ، وعلى كل حال ، اظن بأن الاسرائيليين كان امامهم في بعض الاحيان الفرصة لممارسة اختيار شكل أخر لعلاقاتهم مع العرب ، واسمحوا لي بأن اشير الى مثل استخدمته دائماً عندما كنت اعرض المشكلة امام جمهور اسرائيلي :

« في يوم من الايام ، قفز رجل من الطبقة الاخيرة لعمارة التهمتها النيران وقضت على عدد من أفراد عائلته ، ونجا الرجل بهذه الطريقة من الموت ، ولكن عند سقوطه ، اصطدم برجل اخر كان يقف امام المنزل المحترق فكسر له ذراعيه وساقيه . وحدث ذلك بدون أرادة الرجل الذي قفز ، ولكن الشخص المصاب اعتبره سبب المصيبة التي ألمت به ». ولو ان الرجلين التزما جانب العقل وتصرفا

بحكمة لما تحولا إلى عدوين، ولو ان الشخص الذي فر من النيران ـ بعد ان استعاد قوته ـ هب إلى مساعدة ضحيته واعانته ، لادرك هذا الاخير ان مصيبته نجمت عن ظروف لا سبيل إلى السيطرة عليها ، ولا يتحمل مسؤوليتها أي كان ، ولكن اذا لم يحدث شيء من هذا القبيل ـ أي لم يسلك الطرفان السبيل الذي افترضته ـ فان الرجل المصاب سيحمل الاخر مسؤولية ما أصابه ، وسيقسم على الاقتصاص منه ، سيعمد هذا الاخير بدوره تحت تأثير الخوف من الانتقام إلى اساءة معاملة غريمه كل مرة يلقاه ، وهكذا دواليك ... وهكذا يحول كل من الطرفين حياة الطرف الاخر إلى جحيم لا يطاق .

وكنت اقول للجمهور الاسرائيلي الحاضر بانني أشبّه « الرجل الذي يقفز من المنزل المحترق » باليهود الاوروبيين الذين جاؤوا إلى اسرائيل، أما الرجل الاخر فأنه يمثل عرب فلسطين الذين فقدوا أرضهم ، ويتجاوز عددهم المليون نفس ، تفترسهم المرارة وهم ينظرون إلى الجانب الاخر من الحدود حيث كانت بلادهم ، وهم يهاجمونكم بعنف ويقسمون على الانتقام منكم ، وانكم تسؤون معاملتهم بلا رحمة ، وقد اتفقتم على ذلك .. وما هي الفائدة من ذلك ؟.. هل هذا يساعد على ايجاد حل ؟.. » .

اليست الحضارة البرجوازية الغربية التي افرزت النازية هي المسؤولة عن المذابح والمصير الدامي الذي واجهه اليهود الاوروبيون في اوشويتز وماجدانك؟ ومع ذلك فقد طلب من العرب ان يدفعوا ثمن هذه الجرائم . وما تزال المأساة مستمرة . فالغربيون بتأثير من عقدة الذنب التي تتملكهم يقفون الى جانب الاسرائيليين ويعادون العرب ، واسرائيل تقبل الاموال التي تعطى اليها لتقوية نفسها .

وكان يمكن ان تقوم علاقات معقولة بين الاسرائيليين وبين العرب لو ان اسرائيل بذلت جهداً في هذا ، ولو ان الرجل الهارب من النار جرب ان يخفف من المصيبة التي نجمت عن سقوطه ، والتي نزلت بشخص بريء ، ولكن الامور

اتخذت شكلاً مغايراً ، فلم تعترف اسرائيل مطلقاً بشرعية الآلام التي اصابت العرب . ومنذ البداية ، حاولت الصهيونية ان تقيم دولة يهودية صرفاً ، وكانت سعيدة بتخلصها من السكان العرب ، ولم تفكر أية حكومة اسرائيلية جدياً بالعمل على تخفيف اسباب الشكوى لديهم. وطلب من الدول العربية — قبل ان تهتم بمصير العدد الكبير من اللاجئين - الاعتراف بأسرائيل ، أي ان تستسلم سياسياً قبل ان تتفاوض معها . ولا شك بأن الأمر كان يتعلق بالدرجة الاولى بتكتيك دبلوماسي،وتدهورت الاوضاع الى مستوى خطير اثناء تتابع احداث قضية السويس ، عندما قبلت اسرائيل بأن تلعب دور رأس حربة للامبرياليين الاوروبين القدماء — الذين كانوا في النزاع الاخير — وايدت محاولتهم للبقاء في مصر ، ولم يكن هناك ما يجبر الاسرائيليين على التضامن مع المساهمين في شركة قناة السويس ، وكان الموقف واضحاً للعيان ، بحيث انه كان من الصعب على على أي كان الادعاء بان الخير والشر قد اختلطا الى درجة بات من المستحيل فيها التمييز بينهما، وقد اختار الاسرائيليون حينذاك سواء على الصعيد المعنوي، أو على الصعيد السياسي الجانب السيء .

ويبدو الصراع الاسرائيلي العربي ظاهرياً على انه — بكل بساطة — صدام قوميتين متنافستين كل منهما اسيرة مطامعها التي تدعي بأنها شرعية وان اية وجهة نظر امية تجريدية تحكم عليها بالرجعية ، ولكن ذلك يعني تجاهل معطيات الوضع الاجتماعي والسياسي ، اذ انه لا يمكن مقارنة القومية الشعبية الموجودة بقومية الغزاة واولئك الذين يمارسون سياسة القمع،فالقومية الشعبية لها وحدها مبرراتها التاريخية وجانبها القومي ، وتحب تصنيف القومية العربية — وليس القومية العربية الاسرائيلية — ضمن هذه الفئة .

وعلى كل حال ، فالأمر لا يتعلق هنا بتأييد قومية المستعمرين والمسحوقين تأييداً أعمى ، لأن هذه القومية تمر بمراحل مختلفة ، ففي مرحلة ما تكون التطلعات التقدمية هي المسيطرة وفي مرحلة أخرى تبرز الاتجاهات الرجعية .

وما ان يطل الاستقلال ، او يقترب موعد تحقيقه . تبدأ القومية بفقد طابعها الثوري وتميل الى ايديولوجية رجعية وقد شاهدنا ذلك في الهند ، واندونيسيا واحرائيل ، ومن خلال بعض الجونب — في الصين . وبتصنيف سلوك كل قومية حتى اثناء مرحلتها الثورية - بطابع لا عقلي: الاتجاه نحو الانطواء على النفس، العنصرية ، الخ . . . وان القومية العربية بالرغم من مميزاتها التاريخية الناصعة ، ودورها في خدمة التقدم لا تخلو من بعض الشوائب .

لقد أوضحت ازمة شهر حزيران بصورة جلية بعض نواحي الضعف الاساسية في نظام التفكير والعمل السياسي العربي : غياب الاستراتيجية السياسية ، الميل نحو تعبئة الجماهير بطريقة غير سليمة ، الاستعانة بأساليب الديماغوجية القومية السهلة . وقد لعبت نواحي الضعف هذه دوراً حاسماً في الهزيمة العربية .وعندما سمح بعض القائمين على الدعاية في مصر والاردن لأنفسم باطلاق تهديدات نحو اسرائيل وافنائها (وقد تبين انها تهديدات ليس لها اساسها الحقيقي عندما تكشف فيا بعد عدم الاستعداد العسكري الشامل لدى العرب) غذوا بطريقة من الطرق التعصب الاسرائيلي، اتاح المجال للحكومة الاسرائيلية لاستغلال مشاعر الخوف والغضب التي سيطرت على الجماهير ، وتسخيرها لضرب العرب بوحشية .

وان الحرب ـ كما هو معروف ـ توضيح معنى السياسة ، وقد برهنت حرب الايام الستة النقص النسبي في الوعي الذي تتمتع به الانظمة العربية القائمة ،فالنصر الذي احرزته اسرائيل لا يعود إلى الهجوم الوقائي الذي شنته وحسب ، وانما ايضاً إلى اساليب التنظيم الاقتصادي والسياسي والعسكري والعنصري . وقد منحت الحرب ـ إلى حد ما ـ العالم الفرصة لمعرفة التقدم الذي حققه العرب منذ حرب السويس ، والذي تبين بأنه لم يكن كافياً ، ويجب بذل جهود كبيرة لتطوير الفكر السياسي ، وتحويل البنيات الاجتماعية ـ الاقتصادية في مصر وسائر

البلدان العربية إلى بنيات عصرية ... جهود تتجاوز مــــا يتصوره البعض في هذه البلدان .

ويرتبط التخلف القائم ـ ولا شك ـ بعوامل اجتماعية واقتصادية ، ولكن الايدولوجية واساليب التنظيم لها دورها وتأثيرها . وهكذا وقفت « عبادة » الناصرية ، والحزب الواحد ، وغياب كل نقاش حر في طريق تربية الجماهـــير سياسياً ، وعرقلت التقدم الاشتراكي ، وقد ظهرت النتائج السلبية في كل ميدان وعلى شتى المستويات . وعندما تكون مسؤولية القرارات الاساسية محصورة في يد الرئيس وحده ، يصبح الصعب بعيداً عن المشاركة في حياة بلاده السياسية ، وتفقد الجماهير يقظتها ومبادرتها ... وهذا صحيح في الاحوال العادية ، وفي حالة الحرب يمكن ان ننجم عنـــه عواقب خطيرة . ان الهجوم الوقائي الذي شنه الاسرائيليون باسلحة تقليدية ما كان ليؤدي إلى الكارثة التي حدثت لو ان الجيش المصري كان يعتمد على المبادرة الفردية لجنوده ولضباطه ، ولتمكن القـــادة المحليون من اتخاذ الاجراءات الاولية دون انتظار الاوامر من فوق . ولقـد كان الاهمال العسكري دليلاً على وجود ضعف عـــام اصاب التنظيم الاجتماعي والسياسي ، وعرقلت **البيروقراطية العسكرية الناصرية الاندمـاج السياسي لحركة التحرير العربية .**

ولا شك بأن الديماغوجية القومية ليست هي وحدها مصدر العيوب، ولكنها لا يمكن ان تحل مكان الانطلاقة الاصيلة نحو الوحدة القومية ، أو أن تكون تعبئة للقوى الجماهيرية ضد الرجعية والاقطاع وقوى الانقسام ، إلى ذلك كله، انه في حال الاعتماد على رئيس واحد ـ حالة خطيرة كالتي شاهدنا ـ تصبح البلدان العربية أكثر تعرضاً لتدخل الدول الكبرى والحوادث الدبلوماسية .

ويبرز الاسرائيليون الان بطريقـة متناقضة وغير مجدية وكأنهم يلعبون

دور بروسيي الشرق الاوسط .. وها قد حدثت حروب ثلاث تغلبوا فيها على جيرانهم العرب . وكان البروسيون لقرن مضى قد انتصروا بالطريقة نفسها على جميع جيرانهم الدانمركيين والنمساويين والفرنسيين ، مما ولد لديهم ثقة مطلقة بفعالية اسلحتهم ، وسيطرت عليهم مشاعر عصبية استعلائية رافقها احتقار لبقية الشعوب . ويمكن ان يحدث تدهور سياسي من النوع ذاته في اسرائيل (والامر يتعلق فعلاً بالتدهور السياسي) . وعلى كل حال ، لا يمكن لاسرائيل ان تقلد دور «بروسيي الشرق الاوسط» الا بصورة باهتة ومهزوزة قياساً للدور الاصلي . فالشيء الذي حققه البروسيون كان توحيد جميع الشعوب الناطقة بالالمانية والتي كانت تعيش خارج حدود الامبراطورية النمساوية الهنغارية . وكانت البلدان المجاورة لالمانية منقسمة على نفسها لاختلاف المصلحة والتاريخ والدين واللغة ، واستطاع بسمارك ، وغليوم الثاني ثم هتلر استغلال اسباب التفرقة هذه بخلاف الاسرائيليين الذين يحيط بهم العرب من كل الجهات ، وسيبوء بالفشل ، كل محاولة يقوم بها الاسرائيليون لاستغلال الخلافات القائمة بين العرب .

ففي عام ١٩٤٨ ، عندما شن الاسرائيليون حربهم الأولى ، كانت الخلافات تمزق صفوف العرب ، وخفت حدتها مع عام ١٩٥٦ حين اندلعت الحرب الثانية ، وفي عام ١٩٦٧ ، شكل العرب جبهة مشتركة ، وقد يزداد عمق هذه الجبهة فيما لو حدثت جولة جديدة بين اسرائيل وبين العرب .

وقد تلقى الالمان درساً بليغاً من تجربتهم الذاتية عبروا عنه بصيغة تطغو عليها مرارة عميقة « يمكن للنصر ان يجعلك تحفر قبرك بيدك » ، وهذا ما حدث للاسرائيليين الذين لم يعرفوا كيف يتصرفون . ويوجد الان في اسرائيل مضافاً اليها الاراضي المحتلة حديثاً ما يربو على المليون ونصف مليون عربي ، أي ما يزيد على الاربعين بالماية من مجموع سكانها .. هل ستعمد اسرائيل في سبيل ضمان انتصاراتها الى طرد السكان العرب ؟ . واذا حدث شيء من هذا ، فسيؤدي ذلك

إلى مشكلة لاجئين جديدة اشد خطراً من الأولى .. أم انها ستتخلى عن الاراضي التي احتلتها اخيراً ؟.. وهذا غير وارد اذا اخـــذنا بعين الاعتبار تصريحات المسؤولين الكبار فيها .

ويدعو بن غوريون داعية التعصب الاسرائيلي إلى اقامـة دولة « فلسطينية عربية » متاخمة لنهر الاردن .. دولة تكون تحت الحماية الاسرائيلية. هل تتوقع اسرائيل بان يقبل العرب بقيام هـذه المحمية ؟ وبأنهم لن يسخرون كل طاقاتهم للحؤول دون انشائها ؟ ولا يوجد في اسرائيل كلها حزب واحـد يفكر بانشاء دولة فدرالية عربية ـ اسرائيلية ، وبانتظار ان يحدث شيء ما « اقنع » عـدد كبير من العرب بمغادرة بيوتهم على ضفاف الاردن ، أما مصير من بقي منهم فهو أشد سوءاً من مصير الاقلية العربية في اسرائيل التي خضعت طوال تسع عشرة سنة للقوانين العسكرية .

ان هذا النصر بالنسبة لاسرائيل هو أشد ضرراً لها من الهزيمة ، ولقد اضعفها بدلاً من ان يوفر لها الامن والاستقرار . وإذا كان الأسرائيليون قد ارهبهم دائماً الوقوع تحت ضربات الانتقام العربي ، وتخرفوا من خطر الفناء على يد العرب ، فانهم — أي الاسرائيليين — فعلوا مـا بوسعهم لتحويل الوجود العربي المحيط بهم إلى تهديد حقيقي .

***

وخلال الفترة التي شهدت وقف اطلاق النار ، خيل للكثيرين أن هزيمة مصر ستؤدي إلى سقوط عبد الناصر والسياسة التي ارتبطت باسمه . ولو حدث ذلك، لعاد الشرق الاوسط تقريباً باكمله إلى حظيرة النفوذ الغربي، ولتحولت مصر إلى غانا أو اندونسيا جديدة ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث بسبب مبادرة الجماهير الشعبية العربية التي اجتاحت شوارع القاهرة ودمشق وبيروت تطالب عبدالناصر

بالبقاء في الحكم ، وانها لحظة من لحظات التاريخ النادرة ، التي يمكن فيها للانطلاقة الشعبية ان تعيد أو تدمر التوازن السياسي . واستطاعت هذه الحركة النابعة من الجماهير وسط جو الهزيمة أن تشعر الجميع بثقلها ، ونادراً ما شهد التاريخ شعباً يدعم رئيسه المهزوم، ولا ريب بأن الوضع ما زال مضطرباً فالقوى الرجعية ما تزال تنشط داخل الدول العربية ، ولكن الاستعمار الجديد حرم حتى هذه اللحظة من جني ثمار انتصار اسرائيل المزعوم .

من بين الآثار التي خلفتها الحرب، الاهتزاز الجدي الذي اصاب نفوذ الاتحاد السوفياتي وسمعته..هل هذه ظاهرة متبادلة؟ وهل سيؤثر ذلك في خط موسكو السياسي ؟.

خلال شهر حزيران .. كانت ردة الفعل التي شملت القاهرة ودمشق وبيروت هي « لقد تخلى الروس عنا » ، وعندما شاهد العرب المندوب السوفياتي في هيئة الامم يصوت مع الامريكيين الى جانب وقف اطلاق النار دون فرض شروط مسبقة كانسحاب القوات الاسرائيلية غمرهم احساس بأن الجميع قد خانوهم ، وذكر ان عبد الناصر قال للسفير السوفياتي « لقد اصبح الاتحاد السوفياتي منذ الآن دولة من الدرجة الثانية او الثالثة ». ويبدو بأن الاحداث قد اظهرت صحة ما يقوله الصينيون عن اتهام السوفيات بالتواطؤ مع الامريكيين . وسبب سلوك الروس قلقاً في اوروبا الشرقية،فقال التشيكيون والبولونيون « اذا تخلى الاتحاد السوفياتي عن مصر بهذه الطريقة ، فقد يحدث شيئاً مماثلاً اذا هاجم الالمان بلادنا ؟! » .. وسيطر التأثر على اليوغوسلافيين ، وطار تيتو وغومولكا وسواهما من الزعماء الى موسكو للمطالبة بتفسيرات وللحصول على وعد بأن الروس سيساعدون العرب على الخروج من المأزق وان يثير الدهشة ، ان هذه المساعي بذلها « المعتدلون » و « التحريفيون » الذين ينادون عادة بالتعايش السلمي ، وسياسة التقارب مع الولايات المتحدة.. وهؤلاء هم الذين اتهموا الاتحاد السوفياتي بالتواطؤ مع الامريكان .

وكان لا بد من عمل شيء ما .. واتاحت بادرة الجماهير التي انقذت نظـــام عبدالناصر المجال لموسكو لكي تتبنى أسس عمل جديدة ، واظهر القادة السوفيات – بعد التخلي الكبير – انفسهم مرة اخرى بمظهر اصدقاء البلدان العربية وحماتها ، وكان يكفيهم لتأكيد ذلك القيام بحركات مسرحية ، كقطع علاقاتهم الدبلوماسية مع اسرائيل ، والقاء الخطب في هيئة الامم المتحدة . وابدى « البيت الابيض » تفهمه للموقف الحرج ، ولضرورات التكتيك التي انتهت بوصول كوسيغـين الى هيئة الامم المتحدة .

لكن التصرفات وحدها لا تكفي لاعادة الاتحاد السوفياتي الى مركزه ، فقد الح العرب على الاتحاد السوفياتي بأن يعيد على الفور بناء قوتهم العسكرية.. تلك القوة التي فقدوها نتيجة النصائح السوفياتية ، وطالبوا بطائرات ودبابات واسلحة وذخيرة . واعتبرت موسكو هذه المطالب باهظة التكاليف (وكانت مصر قد خسرت وحدها معدات حربية بقيمة مليار جنيه) ، خاصة وان هذه المطالب في حال تحقيقها تحمل في طياتها مجازفات سياسية هامة : فالعرب يرفضون التفاوض مع اسرائيل ويفضلون ان تنام على انتصارها . واعطيت القاهرة الاولوية المطلقة لموضوع اعادة التسليح فقد اتعظ المصريون بالدرس الذي لقنتهم اياه اسرائيل : في المرة القادمة ، من المتوقع ان يوجه طيرانهم الضربة الاولى ، واذا كان السوفيات قد قرروا تزويدهم بالسلاح فهذا يعني بأنهم يوافقون على ذلك .

ولا يمكن لموسكو ان تكون من انصار هجوم معاكس من هذا النوع يقوم به العرب ، ولكنه يستحيل عليها في الوقت ذاته ان ترفض اعادة تسليح مصر ، يضاف الى ذلك ان الاسرائيليين قد تحدثهم نفسهم وهـو يرون العرب يعيدون تسليح انفسهم بشن هجوم وقائي لتعطيل هذه الخطوة – خطوة التسلح – وسيجد الاتحاد السوفياتي نفسه أمام المعضلة التي واجهها في المرة السابقة ، فمن المؤكد ان الولايات المتحدة ستتدخل ، ولا يعقل ان يكتفي الاسطول السادس بمشاهـدة الطيران الاسرائيلي يتحطم ، والقوات العربيـــة تتقدم في طريقها الى القدس

او تل ابيب ، وفي حالة كهذه ، لا يمكن للاتحاد السوفياتي ان يمتنع عن التدخل دون ان يؤدي ذلك الى فقدانه مكانته — الى الأبد — كدولة كبيرة عالمية .

وعلى أثر وقف اطلاق النار بأسبوع واحد ، حضر رئيس اركان الحرب السوفياتي الى القاهرة ، وامتلأت فنادق القاهرة بالمستشارين والخبراء الروس الذين جاؤوا لاعادةبناء القوات المسلحة المصرية، وعلى كل حال، لا يمكن لموسكو ان تفكر بدون قلق باحتمالات صدام مسلح - يتغلب فيه الطرف الذي يضرب اولاً — بين العرب وبين الاسرائيليين ، وكل العواقب التي سيجرها.

ويمكن للمرء ان يفترض أن الغاية من وجود الخبراء في القاهرة هو كسب الوقت ، في الوقت الذي تحاول فيه الدبلوماسية السوفياتية « كسب السلام » لصالح العرب بعد ان سببت في خسارتهم للحرب . الا ان كل ذلك لن يحل المشكلة الاساسيةالتي تعانيها السياسة السوفياتية : فالى أي مدى سيكون الاتحاد السوفياتي قادراً على ترتيب اوضاعه للتكيف مع كل خطوة جديدة يقدم عليها الامريكيون؟ والى متى سيتقهقر امام الهجمات الاقتصادية والسياسيةوالعسكرية التي تشن في الميدان الافرو — آسيوي ؟ ولم تكن بمجرد مصادفة ، ان تعلن جريدة « كراسنايا زفسدا » خلال شهر حزيران عن ان رأي السوفيات في التعايش السلمي قد يحتاج الى اعادة النظر ، ويخشى العسكريون وسواهم ان تؤدي التراجعات السوفياتية الى تشجيع الاميركيين على التقدم الى الامام ، وان يقود ذلك بدوره الى صدام مباشر بين السوفياتية الى تشجيع الامريكيين على التقدم الى الامام ، وان يقود ذلك بدوره الى صدام مباشر بين السوفيات وبين الاميركان . واذا فشل بريجنيف وكوسيغين في ايجاد حل لهذه المشكلة ، فليس من المستبعد ان ينجم عن ذلك تغيير في الحكومة . في الماضي ، لعبت ازمة كوبا وفيتنام دورها في اسقاط خروتشيف ، وان المستقبل وحده هو الذي

سيتيح معرفة نتائج ازمة الشرق الاوسط .

***

على أنني لا اظن بأن الحل سبيله السلاح ، وحتماً ، ليس هناك من يشك بحق العرب باعادة بناء قواتهم المسلحة ، ولكن ما يحتاجون اليه أولاً هو ان تتوفر لديهم استراتيجية اجتماعية وسياسية ، وان تتغير أساليب نضالهم في سبيل التقدم ، وعليهم ان يتخلوا عن الاستراتيجية السلبية التي تقوم فقط على تغذية الكابوس المعادي لاسرائيل . ان بامكانهم رفض الدخول بمفاوضات ما دامت اسرائيل لم تنسحب من الاراضي التي احتلتها ، وبامكانهم ايضاً مقاومة نظام الاحتلال القائم في الاردن ــ الضفة الغربية ــ وقطاع غزة ، ولكن دون أن يؤدي ذلك بالضرورة إلى حرب جديدة .

وان الشيء الذي يمكن ان يمنح العرب نصراً أصيلاً ... نصراً حضارياً ، ليست الحرب المقدسة ، ولا الهجوم الوقائي ، وانما استراتيجية تعمد دون تأخير إلى تحويل البنيات الاقتصادية والسياسية إلى بنيات عصرية حديثة ،وإلى توحيد الحياة الوطنية التي ما تزال مجزأة إلى الان نتيجة خلافات من شتى الالوان يغذيها الامبرياليون ، ولا يمكن تحقيق هذه النتائج إلا إذا أزداد تأثير الاتجاهات الثورية والاشتراكية في الحياة السياسية العربية .

واخيراً .. ستكون القومية العربية اداة تحرير أشد فعالية ان هي اتسمت ببعض الاممية ، لان ذلك« يعقلنها »، ويتيح للعرب التفكير بالمشكلة الاسرائيلية عبر نظرة اكثر واقعية ، وليس بامكان العرب تجاهل حق اسرائيل بالوجود ، واطلاق التهديدات العنيفة إلى ما لا نهاية . فالتقدم الاقتصادي ، والتصنيع والتعليم ، والتنظيم الافضل والسياسة القائمة على مزيد من العقل وليس التفوق العددي ، ولا الدعاية المعادية لاسرائيل كذلك هو السبيل الوحيد لكي يصبح العرب فعلاً القوة المؤثرة الاساسية .. وعندها ستعود اسرائيل اليا إلى حجمها

المتواضع ، والى دورها الذي يمكن ان تقوم به في قلب الشرق الأوسط .

ولا يتعلق الامر هنا ببرنامج قصير المدى ، غير انه من الممكن ان يتحقق في مستقبل قريب نسبياً ، وعلى كل حال ، لا يوجد هناك طريق اخر يقود إلىهذه الغاية ، فقــد اثبتت طرق الديماغوجية والانتقام والحرب ما كانت تستحقه من قيمة .

وينبغي ان يكون هدف العرب الفوري مخاطبة الشعب الاسرائيلي والعمال وسكان « الكيبوتز » ـ التعاونيات الزراعيــة ـ مباشرة ودون المرور بالحكومة ، لانه يجب اقنــاع الشعب الاسرائيلي عن طريق تقديم ضمانات حاسمة له ، كان يقال له بأن حقوقه الشرعية ستكون موضع الاحترام ، وانه يمكن لاسرائيل ان تأخذ مكاناً لها في اتحاد الشرق الاوسط .. وخطوة كهذه ، ستخفف من حــدة التعصب الاسرائيلي ، وستساعد على نمو معارضة شعبيةضد سياسةالغزو وضد سيطرة اشكول وديان ،وسيتجاوب العمال الاسرائيليون مع نداء من هــذا النوع بأكثر مما قد يتصوره المرء .

ويجب على بلدان الشرق الاوسط ان تبتعــد اكثر عن لعبة الدول الكبرى التي ما انفكت حتى الآن تعطل تقدمها السياسي والاجتماعي ،وقد بينت الى أي حد كان النفوذ الامريكي قد ساعد على طبع السياسة الاسرائيليــة بطابع التعصب المشين ، ومن ناحية أخرى، كان النفوذ السوفياتي قد ترك اثاره السيئة على العرب عندما غذى لديهم الشعارات العقيمة ، ونشر الديماغوجية بين صفوفهم... علاوة عن المرارة التي خلفتها سياسة موسكو الانانية والانتهازية. واذا بقيت سياسة الشرق الاوسط مجرد اداه تحركها الدول الكبرى، فان التطورات ستسير نحو مزيد من التدهور ، ولن يتمكن لا اليهود ولا العرب من الخروج من الازمــة التي تحيط بهم . وانني كأنسان يساري اوجه تحذيري هذا الى هؤلاء واولئك بأكثر قــدر ممكن من الوضوح والصراحة .

ولا بد هنا من الاعتراف بأن الحرب الاسرائيلية قد اربكت اليسار الدولي. فالغموض كان شديداً ، ولا اتحدث هنا عن « أصدقاء اسرائيل » كالسيد موليه وسواه من أمثال اللورد آفون وسلوين لويد اللذين وجدا في الحرب استئنافاً لحملة السويس ، وفرصة للانتقام من هزيمة ١٩٥٦ ، ولا اتحدث ايضاً عن الاحتكارات الصهيونية المرتبطة بالجناح اليميني المتطرف في حزب العمال... وحتى بين صفوف اليسار المتطرف داخل هذا الحزب . ان موقف شخص كسدني سيلفرمان ، جعل المرء يفكر بانه يمكن ايقاظ الصهيونية النائمة لدى السياسي اليساري اليهودي .

ولقد رأينا الغموض يسيطر على من هم أكثر يسارية ، على اولئك الذين ناضلوا بصورة دائبة ضد الامبريالية ، فقد تضامن كاتب فرنسي — عرف دائماً بمواقفه الجريئة ضد حرب الجزائر وحرب فيتنام — مع اسرائيل ، واعلن بأنه اذا كان انقاذ اسرائيل يحتم تدخل الامريكيين ، فإنه يؤيد هذا التدخل ، وذهب الى حد القول « يعيش الرئيس جونسون ! » .. ويبدو أنه لم يهتم بالتناقض الذي وقع فيه وهو يهتف « يسقط جونسون » . بالنسبة لفيتنام ، و « يعيش جونسون » وهو يتحدث عن اسرائيل ، ودعا جان بول سارتر بتحفظ الى التضامن مع اسرائيل ، ولكنه اعترف بالضيق الذي عاناه ، وحاول ان يشرح موقفه فقال إنه تعلم في أثناء المقاومة - والمقصود هنا مقاومة الاحتلال النازي — كيف يعامل اليهودي كأخ يجب الدفاع عنه مهما كانت الظروف . وخلال حرب الجزائر ساند العرب مساندة الاخوان . أما بالنسبة للصراع الذي نشب فانه قد اعتبره قتالا بين أشقاء له ، وكان يستحيل عليه الحكم على الامور بطريقة باردة دون الوقوع تحت سيطرة مشاعر متناقضة .

ومهما يكن من أمر ، فينبغي أن تتوفر لدينا رؤية عادلة للأوضاع ، وان لا نترك العواطف والذكريات — مهما كانت حية في نفوسنا - ان تطغي علينا .

ويجب ان لا تضغط علينا ذكرى « اشويتز » ، وان لا تدفعنا الى الوقوف مع الجانب السيء . وانني اتكلم كماركسي من أصل يهودي ، شهد موت قسم من عائلته في « اشويتز » ، وله أقارب في اسرائيل . ان المرء يلحق ضرراً كبيراً باسرائيل ان هو حاول ان يبرر او أن يغفرلها الحروب التي شنتها ضد العرب .. وهو ان فعل ذلك يسير باتجاه مناقض لمصلحتها على المدى الطويل .

وهؤلاء الاصدقاء قد غذوا بقصد أو بغير قصد الموجة الرجعية التي غمرت البلاد اثناء الازمة . وقد تألمت كثيراً وانا أشاهد المناظر التي عرضها التلفزيون: الغزاة يعرضون وحشيتهم ، ومظاهر التعصب ، والاحتفالات المذهلة بنصر لا مجد له .. وكل هذه المشاهد ، كانت تتناقض مع صور الآلام والاسى التي أصابت العرب ، مع طوابير اللاجئين، وجثث الجنود المصريين الذين ماتواعطشاً في الصحراء . وافترسني الألم وانا أرى رجال الدين اليهود يرقصون طرباً بجانب حائط المبكى ، وبدأ لي بأن البلاد قد خيم عليها التعصب التلمودي الذي أعرفه جيداً ، والذي يضيق على انفاسي ، ثم كان هناك المقابلات التي اجريت مع الجنرال دايان البطل القومي الذي لم يتحدث إلا عن ضم الاراضي المحتلة بلغة تدل علىتخلف في الوعي السياسي ، وأجاب عندما سئل عن مصيرعرب الاراضي المحتلة قائلاً بوقاحة « وماذا يهمني من هذا الأمر ؟ بامكانهم الذهاب او البقاء ؟ فإنني لا أبالي بذلك » . ولقد تحول هذا الرجل الى بطل اسطوري مزيف (وأقول مزيف لانه ليس هو الذي أعد خطة حرب الأيام الستة ، وبرز بدور جديد يرشحه لان يتحول الى ديكتاتور : والفكرة الكامنة وراء هذا الميل هي انه اذا كان المدنيون قد أبدوا ليناً تجاه العرب ، فان هذا الديغول المصغر قادر على رد العرب الى مكانهم ، وعلى رفع « مجد » اسرائيل نحو مكان أرقى واسمى .

ووراء دايان ، يقف مناحيم بيغن الوزير وزعيم الحزب الصهيوني المتطرف في يميليته الذي يطالب منذ وقت طويل بشرقي الاردن لأنه من الناحية التاريخية جزء متمم لاسرائيل . ومن المؤكد ان الحرب الرجعية لها امتدادات في الاتجاه

نفسه ، ويتجسد طابعها واهدافها في نماذج الابطال التي تخلقهــا . ويمكن القول – على مستوى آخر – بأن قادة اسرائيل يعطون للمأساة التي عاشها اليهـــود تتمة تاريخية تفقدها معناها الحقيقي حتى ولو استمروا في ترديد اسماء « اشويتز » و « تريبلنكا » لتبرير تصرفاتهم .

وقد دفع اليهود غالباً ثمن الدور الذي اضطروا إلى ادائـــه في الماضي ... دور الممثلين لاول شكل من اشكال الرأسمالية في مجتمع زراعي ، فقد كانوا هم التجار ، وهم الذين كانوا يقرضون الأمـــوال . ومع نمو الرأسمالية اصبح هذا الدور – الذي انغـــرس في اذهان الناس عنهم – مجرد دور ثانوي ، فكانت الاكثرية الساحقة من اليهود في اوروبا الوسطى تتكون من حرفيين صغـــار مساكين ، وتجـــار صغار ، وبروليتاريا ومن هم دون البروليتاريا ، ومن أناس بؤساء . ولكن الخيال الشعبي الذي انغرست فيه صورة التـاجر الثري والمرابي اليهودي (الذي ينحدر مباشرة من اولئك الذين صلبوا المسيح) ولد لدى الناس الحذر والخوف . وقد استغل النازيون هذه الصورة وبالغوا في ابرازها وفرضوها على عقول الجماهير .

ولم تلتزم اسرائيل باعطاء الناجين من اليهـود الاوروبيين « وطناً قومياً » وحسب ، بل التزمت ايضاً بتحريرهم من لعنة الجدود التي التصقت بهم .. ومن اجل ذلك تم انشاء « الكيبوتزات » ، و « المستدروت » والصهيونية بوجـه عام ، وتحول اليهود من عناصر غير منتجة وتجار ووسطاء (على الصعيد الاقتصادي والثقافي) ، وعملاء للرأسمالية الى « عمال منتجين » فوق « أرضهم » .

ومع ذلك .. فها هم مرة اخرى يلعبون في الشرق الاوسط دور العملاء لا لرأسماليتهم الذاتية غير العدوانية نسبياً ، وانما للمصالح الغربيـــة الكبيرة والاستعمار الجديد ، على الاقل هكذا ينظر اليهم العـــالم العربي ، وله أسبابه المعقولة .

وها هم مرة اخرى .. يثيرون كراهية جيرانهم عليهم .. جيران هم ضحايا الامبريالية فأي مصير هو هذا المصير الذي صار اليه اليهود ! فعندما كانوا عملاء رأسمالية شابة ، كانوا يشكلون على الأقل قوة تقدم وســـط مجتمع اقطاعي . ولكنهم تخلوا عن هذا الدور عندما اصبحوا عملاءالرأسمالية الامبريالية الحالية، وأبدوا استعدادهم لكي يكونوا كبش فداء مرة جديدة . هل سينتهي التاريخ باستكمال آخر حلقاته على هذا النحو ؟ هذا ما يمكن استخلاصه من انتصارات اسرائيل ، وان من واجب اصدقاء اسرائيل الحقيقيين ان يحثوا الاسرائيليين على النضال ضد مثل هذه النهاية .

وينبغي للعرب من ناحيتهم ان يحذروا الوقوع في شرك السخفاء والحمقى من مدعي الأشتراكية ومعاداة الاستعمار . واننا نتمنى ان يفلحوا في مقاومة هذا الاتجاه ، وان يأخذوا العبر من هزيمتهم ، وان يعرفوا كيف يقيمون بعد حين بناء اشتراكياً تقدمياً حقيقياً في الشرق الاوسط .

فهرست

الصفحة

اليهودي اللايهودي

يعتبر اسحق دويتشر من أبرز كتّاب ومفكري العصر وله مؤلفات فكرية وسياسية عديدة كما تعتبر مؤلفاته عن الماركسية وأعـلام الفكر الماركسي والتجربة السوفياتية أعمق ما كتب في هذه المواضيع .

وفي هذا الكتاب يحلل دويتشر المسألة اليهودية من مختلف وجوهها بوصفه يهوديا ماركسيا استطاع ان يستوعب المشكلة وتمكن من كشف الطبيعة الرجعية للعقيدة الصهيونية والتركيب الاستعماري للاحتلال الصهيوني في فلسطين .

وربما كان ما كتبه دويتشر عن حرب حزيران من أعمق ما كتب في هذا الموضوع الهام ، بالنسبة لنا خصوصاً ، لا من حيث اعتبار النصر الاسرائيلي العسكري كارثة تاريخية بالنسبة للصهيونية على المدى البعيد وحسب ، بل من حيث إنه أشار الى أن الطريق العربي للنصر على الصهيونية والاستعمار يمر عبر تحقيق تطور شامل في بنيان المجتمع العربي وتوحيد الحياة القومية من خلال استراتيجية ثورية جديدة

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقيا - موكيالي بيروت . ص.ب: ١١/٥٤٦٠ بيروت